

المكتبة الجماهيرية

٣

الأعمال الكاملة

للشيخ البليغ، المجاهد الشهيد، القائد المحرض

أبي حسيب اللبدي

حسن محمد قائد

والذي قُتِلَ شهيداً بعبارة صليبية غادرة في وندريسكان على الحدود
الأفغانية الباكستانية، في شهر رجب ١٤٣٣هـ / يونيو ٢٠١٢م

حَقَّقَهُ وَجَمَعَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ:

أبو عبد الرحمن الزبير الغزوي

« غفر الله له وخطمه بالشهادة في سبيله »

دار الكتاب العالمي

الأعمال الكاملة للشيخ المحب الشهيد

أبي حسيب اللبدي

الأعمال الأكلية

للشيخ البليغ المجاهد الشهيد القائد المحض

حسن محمد قائد

أبي حبيبي

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٤ م

الطبع والتجليد:

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti

Göztepe Mah. Bosna Cad. No: 11 Bağcılar / İstanbul Tel: 0212 46808426

Sertifika No: 45522

النشر والتوزيع: دار الكتاب العالمي

عنوان دار الكتاب العالمي: تركيا - استانبول - العمرانية

Yamanevler Mah. Küçüksu Cad. Bildircin Sok. No: 9 Dükkan: 1

Ümraniye / İstanbul

رقم الهاتف والتواصل:

00905397626695

bilgi@kureselkitap.com

www.kureselkitap.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأعمال الكريمة

للشيخ البليغ، المجاهد الشهيد، القائد المحرض

إلى تحيي الألبان

حسب بن محمد قاسم
رحمته الله

والذي قتل شهيداً بعبارة صليبية غادرة في نيرستان على الحدود

الأفغانية الباكستانية، في شهر رجب ١٤٣٣هـ / يونيو ٢٠١٢م

حقيقه وجمعه وخرج أحاديثه وعلق عليه :

أبو عبد الرحمن الزبير الغزالي

« غفر الله له وختم له بالشهادة في سبيله »

الأعمال الأكلية أمثلة

للشيخ البليغ الجاهد الشهيد، القائد المحرض

أبي يحيى اللبني

حسن محمد قائد

تأملات.. في سورة الحجرات

أصل هذا الكتاب دورة علمية تضمنت ست محاضرات في تفسير سورة
الحجرات، من أصل سبعة ألقاها الشيخ؛ فالدرس الأول مفقود من
الأصل، ولم يُنشر لضياعه للأسف، فبدأت المادة من السريط الثاني..
وقد تم إعادة صياغة النصوص لتوافق النص المقروء على السريط المتبع في
«الجموع» للنصوص الفرغة، مع وضع ما يلزم من أدوات الربط المختلفة..

وقد كان إلقاء هذه الدروس في عام:

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الكتاب العالمي

الدرس الثاني

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه وسار على سنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد...

❖ [خطر الإشاعة ووجوب التثبت في الأخبار وإذاعتها]

كنا بالأمس قد وقفنا عند قول الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وقلنا: إن في هذه الآية إرشاداً إلى خلق عظيم يجب على المسلم أن يتأدب به، وهو التثبت في سماع الأخبار ونقلها، وإن التهاون في هذا الأمر وتلقف الأخبار من كل جهة وإشاعتها من غير تثبت ولا تحرر ولا تبين؛ يؤدي بلا شك إلى وقوع المسلم في الإثم وظلمه لغيره من المسلمين، قال تعالى: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، وكما ذكرنا بالأمس أن النبي ﷺ يقول: (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)^(١).

وقلنا: إننا نحن المجاهدون بحاجة لهذا الأدب حاجة ملحة وعظيمة؛ لأن خطأ المجاهد في نقل الأخبار وإشاعتها وبثها ليس كخطأ غيره، قد يترتب على ذلك سفك دماء ونهب أموال وغير ذلك، فحريُّ بنا ونحن في هذه النعمة العظيمة التي منَّ الله ﷻ بها علينا وهي نعمة الجهاد ونعمة الاجتماع على هذه الطاعة، وأنا دائماً بفضل الله ﷻ في مجتمع إسلامي.. وهذه من النعم التي يندر أن يتحصل عليها المسلم؛ فإذا لاحظت حياتك تجد أنك في جل وقتك تعيش بين إخوانك أو بما

(١) [رواه مسلم: (٥)].

نسميه بالمصطلح المعاصر: بين «الملتزمين»، وقلَّ ما تحنَّكُ بالفسقةِ والفجارِ وبالعوامِ وبغيرهم، فوقتك كله في مجتمعٍ محافظ، ومجتمعٍ إسلامي؛ مجتمعٍ يسعى لإقامة دين الله ﷻ، فنحن أولى الناس بأن نتمسك بهذه الآداب فيما بيننا.

❖ [علامة صحة الإيمان: طاعة رسول الله ﷺ وفيها النجاة في الآخرة]

ثم قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فهنا منَّ الله ﷻ، أو ذَكَرَ بعضَ منَّه على الصحابة ﷺ، وقال: اعلموا أيها الصحابة أو أيها المؤمنون أن رسول الله ﷺ يقيم بين أظهركم؛ فعليكم أن تتأدبوا معه وأن تعظموه وتبجلوه وتوقروه، كما ذكر في الآيات التي في مطلع هذه السورة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، هذه الآية قد جعلت الإنسان في مفرق طرق إما إلى العنت والمشقة والحرَج والضيق وإما إلى الفلاح والنجاح والسعة باتباعه لأمر النبي ﷺ.

قال ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]؛ يعني إما أن تطيعوا رسول الله ﷻ؛ فتسعدوا وتفلحوا، وإما أن تحاولوا أن تأخذوا أو أن تجذبوا رسول الله ﷻ إلى طرفكم من أجل أن يطيعكم فيما تريدونه؛ فبعد ذلك ستقعون في الحرَج والضيق والعنت ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]؛ أي لأصابتكم المشقة، وهذا يبيِّن لنا أن حرص النبي ﷻ علينا أشد من حرصنا على أنفسنا، وأن نظره لمصلحتنا أعظم من نظرنا لمصلحتنا، كما قال الله عز وجل: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

إذن فالإنسان بين أمرين: طريق سعادةٍ وهي في اتباع سبيل النبي ﷻ، وأن لا يقدم رأيه على رأي النبي ﷻ، وأن لا يظن المصلحة فيما يذهب إليه عقله مما هو مخالف لشرع الله ﷻ؛ لأنك لو حاولت أن تطوع الشرع أو أن تطوع أحكام الشريعة لما تحبه أنت وتهواه أو لما يراه عقلك أو لما يوافق عاداتك، فاعلم أنك تسلك سبيل العنت والمشقة والضيق والحرَج.. هذا هو الذي تدل عليه

هذه الآية.

فالإنسان المسلم متبعٌ، يقف مع أثر النبي ﷺ والاتساء به؛ فهذا هو سبيل الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأنت ماذا تريد سوى الله ﷻ واليوم الآخر؟

إذا أردت النجاة في الآخرة، وإذا أردت رضوان الله ﷻ؛ فما عليك إلا أن تقتدي بالنبي ﷺ.

إذا ظهر لك حكم الله ﷻ وبانت لك سنة النبي ﷺ؛ فاعلم أن مصلحتك فيها.. مصلحتك في اتباع سنة النبي ﷺ، وأن مشقتك وعتتك في مخالفة أمره ﷺ، والمؤمن ليس له الخيرة من أمره، لا يتخير من أحكام الله ﷻ، قال ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، المؤمن إنما يقول سمعنا وأطعنا، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

واتباع أمر النبي ﷺ هو السبيل الذي يتحصل به المسلم على محبة الله ﷻ، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، كما قال بعض العلماء: «ادعى بعض الناس محبة الله فطولبوا بالبيئة»^(١)، وطولبوا بالبرهان على صدق محبتهم لله ﷻ، ما هي هذه البيئة التي عليهم أن يشبوا بها صدق محبتهم لله ﷻ؟ هو اتباعهم للنبي ﷺ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ - كما تقولون- ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾؛ يعني فاتبعوا النبي ﷺ إذا فعلتم ذلك يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؛ العنت هو المشقة والتعب، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَّ وَرَيْبُهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، هذه من نعم الله ﷻ؛ وهو أن يُحبب الإيمان للإنسان، فالإنسان بنفسه لا يملك أن يحب هذا وأن يكره هذا، فقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يصر فيها كيفما يشاء.

(١) [قال ابن القيم: «لَمَّا كَثُرَ الْمَدْعُونَ لِلْمَحَبَةِ طَوْلِبُوا بِإِقَامَةِ الْبَيْتَةِ عَلَى صِحَّةِ الدَّعْوَى، فَلَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لِادِّعَى الْخَلْقُ حُرْقَةَ الشَّحِيِّ، فَتَنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببيئة».. ثم ذكر الآية. زاد المعاد (٣/٨٨)].

فالإنسان لا يملك لنفسه الهداية؛ بمعنى هداية التوفيق، فهذه لا يملكها إلا الله ﷻ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، قال كذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠] سبحان الله! تأمل تدبر في حالك، حيث صرت من أهل الإيمان، وصرت من اتباع النبي ﷺ، وما أحببت الإيمان وكرهت المعاصي إلا بفضل الله ﷻ.. الله رب السماوات والأرض هو الذي غرس في قلبك حب الإيمان، وهو الذي غرس في قلبك حب اتباع النبي ﷺ. وأنت أيها الإنسان -الضعيف الفقير المغمور الذي لا يلتفت إليه ولا يسمع لرأيه- الله ﷻ اختارك من بين آلاف -بل ملايين- البشر الضالة التائهة التي لا تفرق بين حق وباطل ولا بين ظلمات ونور ولا بين كفر وإيمان؛ ثم قذف في قلبك نور الإيمان.. هذه نعمة عظيمة من الله ﷻ، ولا يملكها أحدٌ حتى النبي ﷺ أكرم الخلق على الله ﷻ لا يملك هذا الأمر، كما قال الله ﷻ له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ودائمًا في مثل هذا الموطن أذكر قصة أبي طالب عم النبي ﷺ: أبو طالب ما بقي شيء يمكن أن يقدمه لحماية النبي ﷺ ولحماية الدعوة الإسلامية إلا وقدمه.. قدم من الأمور الكثيرة، مما لم تقدمها حركات إسلامية وهو رجل كافر، وبقي في الحصار مع النبي ﷺ ثلاث سنوات يتحمل الجوع ومقاطعة الأقربين والحصار الاقتصادي، وهو على كفره مع ذلك، وهو الذي يقول ويشهد شهادة حق بأن الإسلام دين حق، فيقول:

[البحر: الكامل]

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ
مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
وأبو طالب هو الذي تعهد أمام النبي ﷺ بأنه لن يسلمه لأحد حتى يموت، كما يقول في شعره:
وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ
حَتَّى أَوْسَدَ فِي التُّرَابِ دَفِينًا^(١)
لن يصلوا إليك! ومتى هذا؟ عندما كان النبي ﷺ أحوج ما يكون إلى من يحميه، أحوج ما يكون إلى من يدافع عنه، أحوج ما يكون إلى من يجيره؛ فالنبي ﷺ كان يطوف ويمشي في أيام الحج

(١) [انظر البيتين في: دلائل النبوة للبيهقي: (٢/١٨٨)].

وينادي: من يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي؟ يبحث عن هذا الأمر وأبو طالب قام بهذه المهمة، ومع ذلك عندما جاء الأجل وحان الموت، وأبو طالب على فراش الموت؛ يطلب منه النبي ﷺ كلمة واحدة، كلمة واحدة يمكن أن يحرك بها لسانه، من الذي منع لسان أبي طالب من أن ينطق بهذه الكلمة؟ قال له: (يا عم! قل كلمة واحدة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة)^(١)، كلمة واحدة! لا يريد منه عملاً، فقط تنطق بهذه الكلمة وتخرج من الدنيا، ولكن كانت شياطين الإنس فوق رأسه: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» قالوا له: أترك ملة عبد المطلب؟ يعني هو كان يدافع عن النبي ﷺ حمية وعصبية وهو على ملة عبد المطلب؛ يعني على ملة الشرك والكفر، وعندما خرج من الدنيا قال: «أنا على ملة عبد المطلب»، خلاص! خسر الدنيا والآخرة.

هذا حال عم النبي ﷺ، الذي قدّم هذه الأعمال الصالحة العظيمة عندما كان النبي ﷺ أحوج ما يحتاج إليها، ولهذا فإن النبي ﷺ لمعرفته بما قدمه أبو طالب قال: (والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك)^(٢)، حتى أنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

والله ﷻ أنزل في إثر ذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فيا أيها العبد، يا أيها المسلم، يا من هداك الله ﷻ: هل قدمت من الأعمال لخدمة الإسلام كما قدم أبو طالب؟ لا والله ما قدمت.

حماية النبي ﷺ لا يعدها شيء، الذبُّ عن النبي ﷺ، وعن شخصه في وقت الضيق ووقت الضعف والعجز، والكفرة كلهم يتكالبون عليه، وهو يقف حاجزاً أمامهم؛ هذا الأمر ليس كالدفاع عن الإسلام مجرداً أو الدفاع عن العقيدة مجردة، فهذا الذي قام به عمل صالح وهو جهاد وهو أمر عظيم، ولا شك أن ما فعله أبو طالب لو كان من مسلمٍ مخلص لما عدله شيءٌ.

(١) [صحيح البخاري: (٣٨٨٤)].

(٢) [متفق عليه، البخاري: (١٣٦٠)، ومسلم: (٢٤)].

ولذلك فالسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يساويهم من بعدهم؛ لأنهم صبروا واحتسبوا وتحملوا الأذى ودافعوا عن النبي ﷺ، فلماذا كان أبو بكر ﷺ أفضل الصحابة؟ لأنه وقف مع النبي ﷺ في كل موقفٍ حرج، وفي كل لحظة كان يحتاج إليه فيها، حتى أن أبا بكر ﷺ عندما كان كفار قريش يؤذون النبي ﷺ كان يدفع عنه ويقول: «أتقتلون رجلاً يقول: ربي الله»^(١)، هذا هو حال الصحابة ﷺ.

إذن؛ نعمة الإسلام نعمة عظيمة، ولهذا ذكّر الله ﷻ بها، فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَيْمَنَ وَرَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وأنت اليوم عندما ترى هذه الشريعة؛ تراها بأحكامها، بحكمها، بآدابها، بتناسقها، بتوافق أحكامها.. لا شك أن حبك يزداد إليها ويقينك يزداد بها، وهذا من فضل الله ﷻ.

﴿وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ والعياذ بالله: الكفر معلوم، ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ يعني الكبائر، ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾؛ وهو جميع ما يخالف أمر الله ﷻ من الصغائر ومن غيرها، فالله ﷻ هو الذي جعل قلبك ينفر من هذه المعاصي، قال ﷻ: ﴿وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فالذين كانوا على هذا السبيل وعلى هذا الطريق وأهل النعمة؛ هم أهل حب الإيمان، وأهل بغض الكفر والعصيان والفسوق، هؤلاء هم الذين على طريق الرشد؛ أي على الصراط المستقيم، وأما من سواهم فهو على طريق الغواية والضلالة مهما زينوا ومهما نمقوا ومهما مدحوا إلا أنهم على ضلالة وانحراف والعياذ بالله، وما من أحد يسلك طريقاً ولو كان اعوجاجه يراه كل أحد، إلا أنه يزعم أنه على طريق الرشد حتى فرعون، وهو من هو في الكفر ومحادة الله ﷻ عندما يخاطب قومه ماذا يقول لهم؟ ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فصار فرعون يهدي قومه إلى سبيل الرشد! ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وهكذا ما نسمعه اليوم من الطغاة المجرمين الذين حاربوا دين الله ﷻ؛ يصفون الظلمات والكفر والقوانين الوضعية والديمقراطية وكل نحلة وملة بأنها سبيل التقدم وسبيل الحضارة وسبيل الرقي

(١) [صحيح البخاري: (٣٦٧٨)].

وسبيل كذا.. هذه هي طريق الرشد عندهم! ولكن ماذا نقول لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].
 ديننا هو دين الإسلام، الدين الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
 السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، لا يوجد إلا طريقٌ واحدٌ يوصلُ إلى الله ﷻ وهو طريق
 الإسلام، قال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:
 ٨٥]، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فهو صراط
 واحد.. فالإنسان إذا وجد نفسه على طريق الهداية في معتقده، في عباداته، في أخلاقه، في سلوكه، في
 معاملاته؛ فليحمد الله ﷻ، وليعلم أن الله ﷻ قد جعله من الراشدين على طريق النجاة التي توصله
 إلى الله ﷻ.

بعد ذلك قال الله ﷻ: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ يعني ما نلتموه أنتم من هذه
 الأمور التي كنا نذكرها ونعددها هو محض فضل من الله ﷻ، وليس استحقاقاً من عند أنفسكم،
 وإنما هو تفضل وإكرام وجود من عند الله ﷻ، ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨].
 نسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجعلنا من الراشدين وأن
 يجعلنا ممن يحيا على الصراط المستقيم ويموت على الصراط المستقيم إنه سميعٌ قريبٌ.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين



الدرس الثالث

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه وسار على سنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد..

كنا قد تكلمنا بالأمس على قول الله ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّآ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

وقلنا: إن هذه الآية بينت السبيل الذي ينال به المسلم السعادة والسعة والراحة والطمأنينة والسكينة والاستقرار في الحياة، وبيئت الطريق الذي يحصل به العنت والمشقة والحرَج وغير ذلك؛ فاتباع النبي ﷺ هو سبيل السعادة، ومخالفة أمره ومشاقة الله ﷻ ورسوله ﷺ؛ هو سبيل العنت والشدة والضيق والحرَج.. والآية التي سنتكلم عليها اليوم مرتبطة بهذا السياق.

وإذا تأملنا في تسلسل الآيات لرأينا بينها تناسقاً عجبياً؛ فالآية التي تكلمنا عليها قبل يومين وهي قول الله ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَدِيمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، دلت على أن عدم الثبوت في الأخبار؛ يؤدي إلى ظلم الغير، إما ظلمه في ماله أو في نفسه أو في عرضه أو في دمه، ومع هذا الظلم ربما يكتشف الإنسان في وقت ما أنه قد هضم حق أخيه؛ فيندم حين لا ينفع الندم، فلذلك قال ﷻ: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا

فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿[الحجرات: ٦]، ثم تأتي هذه الآية لتحثنا على وجوب الثبت، والثبت إنما أمر به القرآن الكريم، وأمر به النبي ﷺ؛ لئلا يقع الإنسان في الحرج والعنت - ومنه ظلم الغير -، فعليه أن يسلك سبيل النبي ﷺ في هذا الأمر.

❖ [حكم البغي بين المسلمين، وبيان حرمة الدماء المعصومة]

وهذه الآيات التي نتكلم عنها اليوم؛ تتكلم على نوع من العنت، بل هو من أشد العنت والحرج الذي يقع بين المسلم وأخيه المسلم، وهو الاقتتال وسفك الدماء، وهذا الاقتتال إنما يقع بسبب الاختلاف، وهذا الاختلاف إنما يحصل بسبب البعد عن دين الله ﷻ؛ فكلما ابتعد الناس عن أحكام الله ﷻ، وعن شريعة الله ﷻ، وعن التمسك بسنة النبي ﷺ؛ عاقبهم الله ﷻ بأن جعل في قلوبهم العداوة والبغضاء، كما قال الله ﷻ في حق اليهود: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤]، عندما نسوا شيئاً مما أمرهم الله ﷻ به، فالله ﷻ أغرى بينهم العداوة والبغضاء؛ أي ملأ قلوبهم بالشحناء والعداوة كعقوبة قدرية على تخليهم عن أحكام الله ﷻ.

وهذا هو الذي يحصل بين المسلمين إذا ما تنكروا لشيء من شريعة الله ﷻ، وابتعدوا عن سيرة النبي ﷺ، وعن التمسك بسنته ﷺ، فإن هذا لا شك أنه سيقود إلى الاختلاف؛ لأن الآراء متباينة والقلوب كذلك مختلفة، وطبائع النفوس ليست واحدة، فإذا لم يكن هناك دائرة يرجع إليها هؤلاء المختلفون وكل إنسان يتمسك برأيه ويتشبث بما يراه وبما يحبه ويهواه؛ فإن هذا سيؤدي إلى التصادم، وهذا التصادم؛ سيؤدي إلى التنازع؛ وهذا التنازع سيؤدي إلى الاقتتال.

ولكن القرآن يتعامل مع المسلمين، بل مع الناس جميعاً بحسب واقعهم؛ فما ترك القرآن هذه المشكلة بغير حل، فالمسلمون بشرٌ قد تغلبهم أهواؤهم، وقد يقعون في الجهل وفي الظلم؛ فهذه الحالات التي يمرُّ عليها المسلمون تحتاج إلى علاج وإلى دواء قرآني، وهو الذي تبينه هذه الآيات؛ فلذا قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وهذه الآية هي عمدة الفقهاء في قتال البغاة.

والبغاة - كما ذكرنا من قبل - : «هم الذين يخرجون على الإمام بتأويل»^(١)، مع أن هذه الآية لم تشر إلى الإمام، ولم تشر إلى التأويل، ولم تذكر شيئاً من هذا، وإنما ذكرت أنه إذا وقع قتال بين طائفتين من المؤمنين؛ فالواجب هو الإصلاح بينهما، فإذا تعدت واحدة وبغت بعد الإصلاح؛ ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَغِيٍّ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ فالآية ليس فيها إشارة إلى القيود الفقهية التي ذكرها الفقهاء، ولذلك هناك فرق بين معنى البغي في اصطلاح الفقهاء وبين معنى البغي في لفظ الشارع كما جاء في الكتاب والسنة.

والبغي إجمالاً هو: مطلق الظلم؛ كما في هذه الآية: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ وغيرها من الآيات والأحاديث التي تذكر البغي، وأما البغي في اصطلاح الفقهاء - الذي يذكرونه في كتب الفقه والذي يذكرون له أحكاماً محددة - فهو: الخروج على الإمام بتأويل.

فإذا كانت هناك طائفة أو مجموعة من المؤمنين، أمروا عليهم أحدهم وأرادوا أن يكون هذا إماماً، ثم خرجوا بالسيف وبالقوة على إمام المسلمين متأولين؛ يعني أن عندهم تأويلاً، أي حجة أو شبهة شرعية قوية في فعلهم هذا؛ فهو لاء هم الذين يسمون بـ«البغاة».

وهذه الآية من ضمن الآيات والأحاديث التي استدلت بها أهل السنة والجماعة أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر؛ يعني ليس خارجاً من ملة الإسلام، خلافاً لما يقوله الخوارج، ولذلك فإن الله ﷻ قد سَمَّاهم مؤمنين رغم اقتتالهم، قال ﷻ: ﴿وَإِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾.

والنبي ﷺ قد ذكر هذا المعنى في أحاديث، فمنها قوله: (سببُ المسلم فسقٌ وقاتله كفرٌ)^(٢)، وهذا حديث صحيح، فإذا جاء الخارجي أو الذي لا يجمع بين الآيات والأحاديث والأدلة في المسألة، فقال: إن مجرد قتال المسلم للمسلم كفر بنص حديث النبي ﷺ، فكلامه غير صحيح، وإنما الكفر المقصود في هذا الحديث هو: كفرٌ غير مخرجٍ من الملة، أو المراد أن هذا من أفعال

(١) [الأولى ضبط هذا التأويل بأنه: «سائغ» فليس كل تأويل يأخذ حكم البغي المعتبر شرعاً؛ إلا أن يكون سائغاً، انظر: المقنع لابن قدامة

(ص ٤٤٦)، كفاية النبي لابن الرفعة (١٥/٣٤٣)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/٥٠٤).

(٢) [متفق عليه، البخاري: (٤٨)، ومسلم: (٦٤)].

الكفار؛ فإن دلالة هذه الآية ولفظها صريحٌ في بقاء الإيمان بين المتقاتلين.

❖ [أحكام البغاة وحالاتهم]

ذكر الفقهاء أحكامًا متعددة كثيرة للبغاة، نذكرها ولا نريد أن نطيل فيها إن شاء الله:

أولاً: قالوا: إذا كان هناك إمامٌ للمسلمين اتفق عليه أهل الحل والعقد؛ يعني أن هذا الإمام لم يختلفوا عليه؛ سواء كان هذا الإمام إمامًا عامًا لجميع المسلمين في أقطار الدنيا، أو كان إمامًا في قطرٍ من الأقطار وسلم أهل هذا القطر لهذا الإمام واعتبروه إمامًا يسمعون له ويطيعون؛ فالحكم واحد هنا وهنا، كما ذكر هذا الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومثله الإمام الصنعاني، بل الشيخ محمد بن عبد الوهاب نقل الإجماع على هذا، على أن مثل هذا يعني من تغلب على قطرٍ من أقطار المسلمين؛ فإنه يأخذ أحكام الإمام الأكبر الخليفة الذي بسط سلطته على جميع أقطار المسلمين^(١)، والحكم واحد فيهما.

فإن وجد إمامٌ بهذه الصفة، ثم كان هناك أناس يرون عدم شرعية هذا الإمام ننظر في حالهم:

١ - الصورة الأولى: إذا كان هؤلاء الناس متفرقين بين المسلمين؛ يعني ليسوا منحاكين إلى جهةٍ ينفردون بها بأحكامٍ ولا غيرها، وإنما هم يرون عدم شرعية هذا الإمام، ولكنهم متفرقون بين المسلمين ويستطيع الإمام أن يلزمهم بأحكام الإسلام، وأن يأخذ حقوق الناس منهم، فهؤلاء ليس للإمام أن يقاتلهم، سواء اعتقدوا إمامته أو لم يعتقدوا إمامته؛ لأنهم تحت قدرة وقهر السلطان، فإذا أراد أن ينتزع منهم حقًا لمسلم استطاع، وإذا أراد أن يلزمهم بحكم استطاع، وإذا أراد أن يقيم عليهم حدًا من حدود الله استطاع؛ فهؤلاء ليس له أن يقاتلهم.

٢ - الصورة الثانية: أن يكونوا متفرقين، ولكنهم يجاهرون ويتكلمون ويدعون إلى خلع الإمام، ولكنهم لم يستعملوا القوة، ولم ينحازوا إلى جهةٍ ينفردون بها، ففي هذه الحالة للإمام أو للأمير أن

(١) [قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي: «الأئمة مجمعون من كل مذهب على أن من تغلب على بلد أو بلدان، له حكم الإمام في جميع الأشياء، ولولا هذا ما استقامت الدنيا، لأن الناس من زمن طويل قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا، ما اجتمعوا على إمام واحد، ولا يُعرف أن أحدًا من العلماء ذكر أن شيئًا من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم». فتاوى ومسائل (ص ٦٧)].

يعاقبهم على فعلهم عقوبة التعزير، وله أن يحبسهم، ولكن ليس له أن يقتلهم؛ لأنهم لم يَنْصِبُوا له الحرب، ولم يُشْهَرُوا له السلاح، والنبى ﷺ يقول: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)^(١)، وهؤلاء ليسوا واحداً من هذه الأقسام الثلاثة.

٣- الصورة الثالثة: أن ينفردوا في جهة؛ يعني يتحيزوا ويكونوا في مكانٍ ينفردون فيه عن المسلمين، إلا أنهم ما زالوا تحت سلطان الإمام، ولم يَنْصِبُوا الحرب ولم يُشْهَرُوا السلاح فهنا ما على الإمام إلا أن يضع عليهم مَنْ يُجْري عليهم أحكام الإسلام، رضوا أو لم يرضوا، ولكن ليس له أن يقاتلهم إلى هنا، ولكن له أن يفرقهم بين المسلمين، وله أن يبحث عن طريقةٍ يكف بها شرهم، إلا أنه إلى هنا ليس له قتلهم ولا قتالهم.

٤- الصورة الرابعة: أن ينفردوا وأن يشهروا السلاح، وأن يدعوا للخروج على هذا الإمام لخلعه وقتاله وتبديله بحاكمٍ آخر، ففي هذه الحالة هؤلاء هم البغاة الذين يقاتلون.

وهناك شروط كثيرة يذكرها الفقهاء في صفة البغاة؛ منها: أن يكونوا منحازين، ومنها: أن تكون لهم منعة وشوكة وقوة، وبعضهم يشترط أن يكون لهم رأس -يعني أمير-، وبعضهم لا يشترط ذلك؛ ولكن الأمر المتفق عليه هو: أن تكون لهم شوكة وقوة يقاتلون بحيث إذا أراد الإمام أن ينتزع منهم حقاً أو أن يجبرهم بأمرٍ؛ فلا يستطيع لوجود الشوكة ووجود السلاح والمنعة عندهم.

ففي هذه الحالة -الصورة الرابعة- للإمام أن يقاتلهم، ولكن لا يشرع في قتالهم حتى يدعوهم للرجوع إلى الطاعة، وذلك لأن قتال البغاة من باب كف الشر وليس كقتال الكفار؛ فالكفار نحن نقاتلهم لأننا نريد أن ننشر الإسلام وأن ندخلهم في الإسلام، وأما هؤلاء البغاة فنقاتلهم لمجرد كف شرهم وإعادتهم إلى الطاعة، فقاتلهم على هذا درءٌ للمفسدة وردٌّ للشر الذي فيهم فقط، فإذا حصل المقصود؛ فخلاص يجب كف القتال عنهم.

(١) [تقدم في: (ص ١٧٨)].

فعلية أولاً: أن يدعوهم للرجوع إلى طاعة الإمام، وأن يكفوا عن القتال وأن يضعوا السلاح، وإن كانت عندهم شبهة كشفها؛ يعني يسألهم: ما الذي دعاكم للخروج عليّ أو للخروج على الإمام؟ فإذا قالوا: هذا الإمام ظلم وسفك الدماء وفعل، وفعل.. فإذا كانت هناك شبهات يحتاجون بها؛ فيجب على الإمام أن يبعث لهم من أهل العلم والعقل من يزيل ويشرح عنهم هذه الشبهة، وإذا كانت هناك مظلمة يدعونها؛ وجب عليه أن يردّها، فالإمام عليه أن يرد هذه المظلمة إذا كان فيها كفٌ للقتال، فإذا أصرّوا بعد كشف شبهتهم ورد مظالمهم على القتال؛ ففي هذه الحالة يستعين بالله ويقاتلهم، ويجب على من دعاه الإمام لقتاله معهم؛ يجب عليه أن يخرج؛ لأن طاعة الإمام واجبة، وهذا من فروض الكفايات التي تتعيّن بتعيين الإمام له.

إلا أن أحكام هؤلاء البغاة في القتال ليست كأحكام الكفار الأصليين^(١)، ولا كأحكام المرتدين، ولا كأحكام المحاربين الذين هم قطاع الطرق، بل هؤلاء لهم أحكام خاصة.

منها أنه لا يجوز أن يُقتل جريحهم، هذا مذهب الجمهور؛ أي إذا جرح أحد هؤلاء البغاة في المعركة فليس لأحد أن يأتي وأن يكمل عليه؛ أن يذفف عليه؛ لأن المقصود هو كف الشر، وقد انكف شره خلاص. وليس له أن يُتبع مدبرهم، وهذا مذهب الجمهور كذلك؛ أي إذا هرب هذا الباغي ورجع إلى فئته فليس لأحد أن يقتله وهو هارب؛ لأن فراره هذا قد يكون فراراً نهائياً لن يرجع بعده إلى القتال. ولا يقتل أسيرهم؛ أي إذا وقع أحدهم أسيراً في أيدي طائفة الإمام؛ فليس للإمام أن يقتله وهذا مذهب الجمهور أيضاً -الجمهور هنا مذهب المالكية والشافعية والحنابلة-، وخالف في ذلك الأحناف وعندهم بعض الضوابط والقيود ليس هذا وقت ذكرها.

فليس له قتل أسيرهم ولا سبى ذراريهم؛ فلا تسبى نساؤهم ولا أبناءهم؛ لأنهم مسلمون مثل أي مسلم آخر ارتكب كبيرة من الكبائر، ولا تُغنم أموالهم.. هذا هو حكمهم؛ لأن الشرع إنما أحل دماءهم فقط للضرورة وأما أموالهم فتبقى على أصل الحرمة، ولهذا فلا يصح أن نقول: أن من

(١) [انظر تفصيلاً وبحثاً مميزاً في أحكام البغاة في كتاب ابن المناصف المالكي: الإنجاد في أبواب الجهاد (٢/٦٦٩)].

استُحِلَّ دُمُهُ اسْتُحِلَّ مَالُهُ، كلا، فقد يُبيح الشرع دم شخصٍ ولكن يحرم ماله.

فأموالهم مصونة محرمة لا يجوز أن تُغنم، نعم يجوز للإمام أن يأخذها وأن يحفظها عنده، وتبقى محفوظة لأهلها وأصحابها إلى أن ينكفَّ شرهم وتنكسر شوكتهم وتنتهي فتنتهم؛ فعندها يرد هذا المال إلى أهله، أما أن يأخذ هذا المال وأن يُقسمه بين المسلمين كما يُقسم المال؛ فهذا لا يجوز له؛ إذن هذا مُجمل أحكام البغاة.

وقد قال الله ﷻ هنا: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، انتبهوا لما في هذه الآية؛ تجدوا أنها ذكرت قتالين: قتال قبل الصلح وقتال بعد الصلح؛ القتال الأول: إخبار، والقتال الثاني: أمر، أما الأول فهو قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، والثاني: ﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا﴾؛ فهذا أمر.

إذن: القتال إذا وقع قبل الصلح بين طائفتين من المؤمنين سوى طائفة الإمام - حيث ذكرنا التدرج الذي يكون بين الإمام وبين أهل البغي -، وهذا القتال إما على أمر الدنيا أو لشبهة بينهما وكل طائفة تدعي أن الحق معها؛ فما لم تقع محاولة الصلح؛ فهذا القتال يعد قتال فتنة، ولا يجوز لأحد أن يدخل فيه؛ لأن الأمر الشرعي الأول الذي أمرنا به في طوائف المسلمين عند النزاع بينها هو: الصلح؛ فلذلك إذا رأينا مخايل وعلامات القتال أن هذه الطائفة تتأهب وتستعد وتتجهز للقتال والأخرى كذلك؛ فعلينا في هذه الحالة وجوباً كفاً أن نسعى للصلح بين هاتين الطائفتين.

فإذا حاولنا الصلح؛ فعجزنا وظهرت لنا الطائفة الظالمة والطائفة المظلومة، فعند ذلك يُشرع لنا أن نقاتل مع الطائفة المظلومة كما قال النبي ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ^(١) إِنْخ الحديث.

فهذه هي مراحل التعامل مع القتال الذي يقع بين المسلمين - نسأل الله أن يعيدنا منه -، فقال الله ﷻ مبيناً ذلك: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالقتال إذن يقع بين طائفتين، والقتال بينهما لا يخرجهما عن الإيمان، فكلاهما من المؤمنين، كما قال النبي ﷺ - وهذا الحديث في الصحيح -

(١) [رواه البخاري، وقد تقدم في: (ص ١٣٨٦)].

حين كان يخطب على المنبر وبجانبه الحسن بن علي عليه السلام؛ فكان ينظر للناس مرةً وينظر إلى الحسن مرةً؛ فقال النبي : (إن ابني هذا سيدٌ ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين)^(١)، وكان كما أخبر النبي عليه السلام؛ فأصلح الله بالحسن عليه السلام بين أهل الشام وأهل العراق.

فالمقصود هنا أن النبي عليه السلام سمى هاتين الطائفتين من المؤمنين - طائفة الشام التي كانت مع معاوية عليه السلام، وطائفة العراق والتي كانت مع علي بن أبي طالب عليه السلام - والحسن هو الذي أصلح بينهما عندما تنازل عن الأمر لمعاوية عليه السلام أجمعين.

فقال الله عليه السلام هنا: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾؛ يعني: اسعوا لنزع سبب القتال؛ لأن هؤلاء إخوة كما قال الله عليه السلام: أخٌ يتقاتل مع أخيه، فلا بد من نزع سبب القتال، يعني: لماذا وقع هذا القتال؟ ولماذا وقعت هذه الفتنة؟ فالمسلم عليه أن يسعى للإصلاح بين المسلمين لأجل كفِّ دمائهم، والإصلاح بين الناس أجره عظيم جدًا كما قال الله عليه السلام: ﴿*لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]؛ لأن الإنسان قد يُصلح بين الناس رياءً وسمعةً، ولكن من يفعل هذا الصلح ابتغاءً مرضاةً الله عليه السلام هو الذي ينال هذا الأجر العظيم.

وفي المقابل فإن إفساد ذات البين والتحريش بين المسلمين وبث أسباب العداوة والبغضاء والشحناء؛ إثم عظيم عند الله عليه السلام، كما قال النبي عليه السلام: (إياكم وفساد ذات البين فإنها الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)^(٢)، ففساد ذات البين؛ أن تفسد القلوب وتتنافر وتقع بينها الشحناء والبغضاء والعداوة؛ فهذا الفساد يؤدي إلى البهت والكذب والسخرية والغيبة والنميمة والقتل أيضًا؛ فلا يبقى للمرء دينٌ بعد ذلك، فهذا سماها النبي عليه السلام: (الحالقة).

ويكفينا هذا اليوم، وغداً إن شاء الله نكمل الكلام على هاتين الآيتين.. وجزاكم الله خيراً.



(١) [صحيح البخاري: (٢٧٠٤)].

(٢) [رواه الترمذي: (٢٥٠٨)، وقال: «حديث صحيح غريب»، وحسنه الألباني].

الدرس الرابع

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه وسار على سنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد..

كنا قد تكلمنا من قبل، ووقفنا عند قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقلنا: إن هذه الآية هي أصل في تشريع قتال البغاة، ولو كانت الآية في أصلها لم تُشر إلى ما يذكره الفقهاء في تعريف البغاة، ولم تتعرض إلى تفاصيل أحكامهم أو أحكام قتالهم المتعلق بدمائهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم، ولكن هذا يُؤخذ من مجموع الأدلة التي وردت في بيان حرمة المسلم وتعظيم حرمة، وكذلك يُؤخذ من سيرة الصحابة رضوان الله عليهم فيما وقع بينهم من القتال.

❖ [الفروق بين قتال البغاة والكفار]

وقلنا: إن الفقهاء يعرفون الباغي بأنه الخارج على الإمام العدل بتأويل.
وقلنا: إن أحكام البغاة في الجملة أنهم يُقاتلون دفعاً لشرهم لا قصداً لقتلهم، ولهذا بعض العلماء ذكر أن الفرق بين قتال البغاة وبين قتال الكفار والمرتدين يصل إلى تسعة أو عشرة فروق^(١).

(١) [ذكر القرافي في كتابه: الفروق (٤/ ١٧١) أحد عشر فرقاً بين النوعين، وقد عدد الشيخ أبو يحيى هنا ستة أوجه فقط].

منها الذي ذكرناه وهو: أن الكفار يُقصدون بالقتل ويُتعمد قتلهم، سواء كانوا كفارًا أصليين أو كانوا مرتدين، وأما البغاة فإنما يقاتلون على سبيلِ دفعِ الشرِّ وكفِّ الضرر الذي يقعُ بسببِ بغيتهم. ومنها: أن الكفار يُقتلون مقبلين ومدبرين، وأما البغاة فلا يقتلون في حالِ إِدبارهم؛ أي في حال فرارهم من ساحة المعركة.

ومنها: أن الكفار يُجهز على جريحهم، وأما البغاة فإنهم لا يجهز على جريحهم.

ومنها: أن الكفار يُقتل أسيرهم، وأما البغاة فالصحيح الذي عليه جمهور العلماء أنه لا يجوز قتل أسيرهم.

ومنها: أن الكفار يجوز سبي نسائهم، وأما البغاة فهم مسلمون ونسائهم مسلمات؛ فلا يجوز سبي نسائهم ولا ذراريهم.

ومنها: أن الكفار تُغنم أموالهم وتُقسَّم، وأما البغاة فلا يجوز تقسيم أموالهم وإنما هي أموالٌ لمسلم لها حرمةٌ مال المسلم الصالح التقى وهكذا أموال البغاة؛ إذن هذه مُجمل الفروق التي تكون بين قتال البغاة وبين قتال الكفار سواء كانوا مرتدين أو كانوا كفارًا أصليين.

❖ [أنواع القتال بين المسلمين، ومراحل التعامل مع الطائفة الباغية]

ونشرع الآن في ذكر الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

أَقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]؛ هذا الحكم يشمل أي قتالٍ يقع بين طائفتين من المسلمين.

ودوافع القتال التي تقع بين المسلمين متعددة:

١- فقد تكون الدوافع شرعية؛ كأن تكون هناك طائفة من قطاع الطرق المفسدين في الأرض

الذين يصلون على دماء الناس ويسطون على أموالهم؛ فقتال هؤلاء مشروعٌ وقد أمر به الشرع.

٢- وقد يكون دافع القتال على أمرٍ من أمور الدنيا كقتال العصبية الذي يقع بين القبائل وبين

طائفتين من المؤمنين؛ فهذا قتالٌ مذموم، والقاتل والمقتول فيه في النار، وهو الذي يشمل قول

النبي ﷺ: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)^(١)؛ لأن قتالهم على أمرٍ من أمور الدنيا.

٣- الأمر الثالث: قد يقع القتال بين طائفتين من المسلمين في حقّ مُلتبس؛ أي لا يميز المرء من المصلح فيهم، ومن المبطل من المحق فيهم، ومن الظالم من المظلوم؛ فالحق مُلتبس بينهما، وكل طائفةٍ منهما تدّعي أن الحق في جانبها؛ فهؤلاء يحرم وقوع القتال فيما بينهم، وقد يكون بعضهم معذورين بتأويلهم فيما يدعونه من الحق.

إذن أسباب وقوع القتال متعددة بين المسلمين، وهذه الآية تتكلم هنا عن القتال الذي يقَعُ على غير الصفة المشروعة؛ يعني إما على أمرٍ من أمور الدنيا، أو على القتال في أمرٍ مُلتبسٍ الحق فيه، فلا يكون الحق فيها بيناً واضحاً؛ فهنا قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، فأمر المسلمين الآخرين بالسعي للإصلاح بين هاتين الطائفتين.

والإصلاح إنما يتم بتبيين من هو صاحب الحق، ومن هو الظالم، ومن هو المظلوم، والصلح إنما يقع بتنازل أحد الطرفين عن حقه أو عن شيءٍ من حقه، وأما إذا تمسك كل طرفٍ بحقه وتشبث به وتعصب إليه؛ فلا يمكن أن يقع الصلح.

الشاهد من هذا: أن الواجب على المسلمين عند وقوع قتالٍ بين طائفتين منهم؛ أن يسعوا وأن يبذلوا قصارى جهدهم للإصلاح بين هاتين الطائفتين وإيقاف القتال، وهذا الصلح كما ذكرنا من قبل أجره عظيمٌ عند الله ﷻ، كما قال النبي ﷺ: (ألا أدلكم على ما هو أفضل من درجة الصيام والصلاة والزكاة، قال: الإصلاح بين الناس)^(٢)، وكما قال الله ﷻ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

ولهذا فالشرع دائماً يحرص على الصلح؛ حتى في المشاكل الخاصة التي تقع بين الرجل وأهله

(١) [سبق في: (ص ١٣٥٧)].

(٢) [رواه الترمذي: (٢٥٠٩) بلفظ قريب، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني].

حَضَّ عَلَى الصَّلْحِ، قَالَ ﷺ: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]؛ فالصلح أمرٌ محمود ومطلوب والشريعة تحثُّ وتحضُّ عليه؛ فالمسلمون مطالبون بأن يسعوا لنزع فتيل الحرب التي يقع بين طائفتين من المؤمنين.

إذن هذا هو الأمر الأول، وهذه هي المرحلة الأولى التي يجب على المسلمين أن يقوموا بها: السعي لإيقاف القتال الذي أجج وإصلاح ذات البين الذي حصل بسببه القتال، قال الله ﷻ: ﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، البغي الذي يقع هنا فسره العلماء بواحدٍ من أمرين:

١- قالوا: إما أن يكون البغي بعدم إذعان إحدى الطائفتين للصلح أصلاً؛ يعني بعد أن يسعى الناس للإصلاح وتقبل إحدى الطائفتين وتقول: أنا مستعدة للصلح وأن أتنازل عن شيءٍ من حقي إلا أن إحدى الطائفتين تستمر في القتال ولا تدعن لمطالب المصلحين، فهذا هو البغي؛ أي البغي بعدم إيقاف القتال مع وجود سبب الإيقاف من الطرف الآخر ومع وجود السعي من المسلمين.

٢- وبعضهم فسّر البغي بأنه بعدما حصل الصلح وتوقف القتال، وكل واحدةٍ من الطائفتين تنازلت عن حقها وأرادت وقف القتال؛ ﴿بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾؛ أي نشبت وأعدت القتال مرةً أخرى بعد حصول الصلح.

فإذن قول الله ﷻ هنا: ﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا﴾ يحتمل أنها بغت؛ أي أنها استمرت في بغيتها وعدم إذعانها للصلح مع وجود سببه، أو أنها بغت؛ أي نقضت الصلح وأعدت القتال للطائفة الأخرى بعدما اتفق الجميع على المصالحة.

قال ﷻ: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى﴾؛ إذن هذه هي المرحلة الثانية وهي: قتال الطائفة الباغية التي تبين ظلمها وظهر أنها تريد القتال وتستمر في سفك دماء المسلمين مع ظهور أن الظلم في طرفها بعدم انقيادها للصلح أو بنقضها له؛ فقول الله ﷻ: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى﴾ معناه: أن الله ﷻ أمرنا في أول الآية بالسعي لإيقاف القتال، وهنا أمرنا بالدخول في القتال، وذلك لأن هناك من الأمراض والفساد ما لا يحسم إلا بالقتال؛ يعني هذه طائفة سعى الناس للإصلاح وتنازلت الطائفة الأخرى، وظهر من هو صاحب الحق، ومع ذلك هي تبغي وتسفك دماء المسلمين، فهذه الطائفة أصبحت لا حل لها ولا

طريقة لكف شرها إلا بقتالها وهو أمرٌ شرعي.

❖ [أحكام البغي بين الجماعات المجاهدة]

وهنا إما أن يكون هناك للمسلمين إمامٌ يقوم عليهم؛ فالواجب القتال مع الإمام ضدَّ الطائفة الباغية، وإما أن يكون هذا القتال في زمنٍ ليس فيه إمام وهذا يقع كثيرًا، فالآن ليس هناك إمام للمسلمين، وكثيرًا ما يحصل القتال بين طوائف وأحزاب المسلمين؛ ففي هذه الحالة قال العلماء: يسعى أهل العلم والعقل والحكمة الذين لهم منزلة في الناس وأهل العلم، ولماذا اشترطنا أهل العلم؟ لأن المسألة تحتاج إلى معرفة من هو الظالم ومن هو المظلوم، وهذا يحتاج إلى حكمة وإلى علم، وإلا فإن مجرد الدخول في الصلح قد يكون على وجهٍ لا يريده الله ﷻ؛ فقال العلماء في هذه الحالة: إذا لم يكن للمسلمين إمام؛ فيسعى رؤوس المسلمين والسواد الأعظم؛ أي رؤوس أكثر الناس، وهم أمراء الناس الذين يمشي وراءهم الناس ويطيعونهم ويسمعون لأقوالهم؛ فيسعون في الصلح ويبذلون جهدهم لإيقاف هذا القتال، فبعد ذلك إذا ظهرت الطائفة الباغية وحكم العلماء بأن هذه الطائفة باغية على تلك الطائفة؛ فبعد ذلك يشرع قتالها لكف شرها.

ثم قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى تَفِيءَ﴾ أي ترجع ﴿إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ قال العلماء: إما أن المقصود بأمر الله: حكم الله ﷻ عموماً، أو أن ذلك يرجع إلى الصلح خصوصاً، أي: إما أنه الصلح الذي نقضته تلك الطائفة ابتداءً، أو الصلح الذي أبت أن تدعن له وتنقاد له في أول الأمر.

قال ﷻ: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ خلاص، قالت هذه الطائفة: أنا أستسلم، وأنا أذعنت للصلح، وأنا أنزل عند حكم الله ﷻ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ فبعد ذلك عليكم أن تسعوا للإصلاح بين هاتين الطائفتين، ولكن هذا الإصلاح يكون بالعدل، ولا يكون فيه إجحاف وظلم وهضم لحقوق الآخرين، وإنما بما توجهه شريعة الله ﷻ: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ يعني: واعدلوا في صلحكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وهذه منقبةٌ عظيمةٌ لأهل العدل أن ينالوا محبة الله ﷻ.

❖ [الأخوة والرابطة الإيمانية]

ثم بين الله ﷻ العلة أو السبب الذي يدفع المسلمين للإصلاح؛ فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ [الحجرات: ١٠]، فهذا استنكار: كيف يحصل القتال وسفك الدماء بين أخوين؟! هذا مسلم وهذا مسلم يجمعهم دينٌ واحد وعقيدةٌ واحدة وشريعةٌ واحدة وحُكْمٌ واحد؛ فالواجب أصلاً على أهل العقيدة الواحدة أن يكونوا كالبنيان يشد بعضهم بعضاً، لا أن يكونوا متنافرين متنازعين ومتقاتلين متحاربين، هذا على خلاف ما يوجهه عليهم الشرع.

وقول الله ﷻ: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾** معناه أن المؤمنَ أخو المؤمن، والمسلم أخو المسلم أينما كان، سواء كان من وطنك أو من غير وطنك، قريب أو بعيد، فقير أو غني، فاسق أو صالح، ما دام هذا الإنسان باقٍ على دين الله ﷻ؛ فلا بد أن يكون هناك رابطة أخوة الإيمان، نعم تضعف بالفسق، وتقوى إذا كان هذا الرجل تقياً صالحاً؛ فولأؤنا له وأخوتنا له ومحبتنا له بقدر ما عنده من الإيمان والتقوى والصلاح، وإذا رُقِّ دينه وارتكب شيئاً من معصية الله ﷻ؛ فمحبتنا له وأخوتنا له تنقص بقدر مخالفته لدين الله ﷻ، أما انقطاع حبلِ الأُخوة تماماً؛ فهذا لا يمكن أن يكون بين مسلم وبين مسلمٍ آخر، وهذه هي الرابطة التي أراد الله ﷻ أن تكون بين الناس وهي رابطة الإيمان؛ فالذين يريدون الآن أن يستبدلوا هذه الرابطة بروابط أخرى كرابطة القومية، أو رابطة الوطنية، أو رابطة المصالح المشتركة، أو غير ذلك؛ هؤلاء يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

فالله ﷻ جعلَ لنا رابطةً واحدة، وهذه الرابطة هي التي ينتفع بها الناس يوم القيامة، قال ﷻ: **﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾** [الزخرف: ٦٧]، فمن كانت أخوته وصحبته لأخيه من أجل أمور الدنيا أو لأجل العرقية أو الوطنية؛ فهذا سيكون عدواً له يوم القيامة، وليس فقط يفارقه، وإنما يكون عدواً له: **﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾** بينهم العداوة في ذلك اليوم.

فإذن؛ الرابطة التي يجب علينا أن نعززها وأن نقويها وأن نحرسَ عليها وأن نذبَّ عنها وأن

نواليّ عليها وأن نعاديّ عليها؛ هي رابطة أُخُوَّة الإيمان، فالمسلم أخوك؛ ولذلك قال الله ﷻ هنا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وإنما - كما تعلمون - من أدوات الحصر، كأنه يقول: لا إخوة إلا المؤمنون.

والنبي ﷺ قد ذكر هذا المعنى في أحاديث متعددة، كما قال النبي ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص)^(١)، وقال النبي ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره)^(٢)، هكذا ينبغي أن تكون علاقة المسلم مع أخيه المسلم، نعم تقع بينهم العداوة، ويقع بينهم الشحناء، ويقع بينهم الأهواء، ولكن رابطة الإخوة لا بد أن تبقى، وما ينبغي للمسلم أن يعامل أخاه المسلم كما يعامل الكافر، ولذلك فإن النبي ﷺ جعل قتال المسلم لأخيه المسلم كفرًا؛ لأن هذا هو عمل الكفار فيما بينهم، فهم الذين ليس بينهم روابط، كما قال النبي ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)^(٣)، وكما قال النبي ﷺ: (سببُ المسلم فسوقٌ وقتاله كفرٌ)^(٤).

إذن هذه هي الرابطة العظيمة التي علينا أن نوطدها وأن نقويها وأن نحصرَ عليها وأن ندافع عنها؛ حتى ننال رحمة الله ﷻ.

فالمراد بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فكيف يقع بينهم هذا التقاتل وسفك الدماء والعداوات على شيء من أمور الدنيا؟!

ثم قال ﷺ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذن على المتقاتلين أن يعلموا أنهم إخوة، وعلى المصلحين أن يعلموا أنهم يسعوا للإصلاح بين الإخوة، وتأملوا أن الله ﷻ لم يقل: فأصلحوا

(١) [متفق عليه بدون لفظ (المرصوص)، البخاري: (٤٨١)، ومسلم: (٢٥٨٥)، ولفظ (المرصوص) لم أجده في دواوين السنة].

(٢) [متفق عليه، البخاري: (٢٤٤٢)، ومسلم: (٢٥٨٠)].

(٣) [متفق عليه، البخاري: (١٢١)، ومسلم: (٦٥)].

(٤) [متفق عليه، البخاري: (٤٨)، ومسلم: (٦٤)].

بين إخوانكم، مع أنه يتكلم عن جمع، فقد جمع المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^١ فالْمُؤْمِنُونَ جمع وليس فرداً واحداً، ثم قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^٢ فثَنَّى الإخوة: أخ وأخ؛ قال العلماء: لأن هذه الطائفة كالجسد الواحد والجماعة الواحدة، فصارت كأنها إنسانٌ واحد، وهذه الطائفة المعادية التي تقاتلها كذلك كالإنسان الواحد، فأنت كأنك تصلح بين أخوين، هذه الطائفة كأنها شخصٌ واحد، وتلك الطائفة شخصٌ واحد؛ فبات هذا التجمع ضمن الطائفة كأنه شيءٌ واحد.

فلذلك ينبغي أن يكون المسلمون رغم قتالهم كحال الأخوين في البيت الواحد، ونحن نعلم إذا وقعت شحنة أو عداوة في داخل البيت الواحد فإنه مباشرةً سيسعى الإخوة للإصلاح.

ثم قال الله ﷻ هنا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^٣ فعليكم أن تتقوا الله ﷻ في هذا الإصلاح، فلا تميلوا مع طائفة، ولا تجحفوا بحق طائفة أخرى، وإنما عليكم أن تتقوا الله ﷻ، وأن يكون إصلاحكم بينهم بالعدل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾^٤؛ فرحمة الله ﷻ إنما تُنال بالاتفاق وبالألفة وبالأخوة وبالاجتماع.



الدرس الخامس

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديه وسارَ على سنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد...

فكنا بالأمس قد تكلمنا عن الآية التي نتحدث عن الإصلاح بين طوائف المسلمين فيما لو وقع بينهم القتال، وبيننا أن الله ﷻ قد ذكر القاعدة العامة التي تجمع بين المؤمنين وهي أخوة الإيمان، هذه الرابطة وهذه الأصرة التي يجب على المسلمين أن يحافظوا عليها، وأن يقووها وأن يبحثوا عن أسباب تدعيمها، وأن ينبذوا عنهم كل ما يوهنها ويضعفها ويؤدي إلى قطعها.

فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ فهم إخوة سواء في حالة المسامحة أو في حالة العداوات التي تقع بينهم، والشحناء التي تكون في قلوبهم، والبغضاء التي قد تمتلئ منها صدورهم، إلا أنهم مع ذلك إخوة تجمعهم عقيدة واحدة ودين واحد؛ إذن هذه هي الرابطة التي يقوم عليها وتتأسس عليها العلاقة بين الإنسان وبين أخيه المؤمن، سواء كان هذا المؤمن قريباً أو بعيداً، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، سواء كان أسوداً أو أبيضاً، سواء كان غنياً أو فقيراً، فهو مؤمنٌ وله حق إخوة الإيمان، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

❖ [حرمة السخرية بالمسلم واحتقاره ولمزه]

بعد هذه الآيات ذكر الله ﷻ، بل نهى الله ﷻ عن أمراضٍ مستفحلة إذا دبَّت في المجتمع المسلم وإذا انتشرت بين أفرادها؛ فإنها تؤدي بلا شك إلى ذلك المرض العظيم، وتلك النتيجة السيئة التي كنا نتحدث عنها من قبل، وهي الاقتتال الذي يقع بين المؤمنين.

قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، نادى الله ﷻ المؤمنين بهذه الصفة التي لها مقتضيات ولها لوازم، وعليهم أن يحققوها بأعمالهم التي هي طاعة الله ﷻ، واجتناب ما نهى الله ﷻ عنه.

فمما نهى الله ﷻ عنه المؤمنين، والذين إن كانوا مؤمنين فعليهم أن يلتزموا به: أن يسخر بعضهم من بعض، والسخرية هي: الاستهزاء بالآخرين، واحتقارهم وازدراؤهم، فلذلك قال الله ﷻ هنا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ﴾ أي: لا يستهزئ قومٌ من قومٍ آخرين، ولا يحتقر قومٌ قومًا آخرين، وهذه السخرية سواء كانت بالقول أو بالفعل أو بالإشارة، أو بكل ما يفهم من استنقاص أخيك المسلم، وبكل ما يفهم من احتقار أخيك المسلم، وبكل ما يفهم من ازدراء أخيك المسلم؛ فهذا كله نهى الله ﷻ عنه بهذه الكلمات، وإلا فهذا المسلم الذي أنت تسخر منه وتزدريه وتحتقره، وتظن نفسك أفضل منه، قد يكون أفضل عند الله ﷻ؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾؛ فإن الخيرية الحقيقية هي المنزلة التي ينالها العبد عند الله ﷻ.

فأنت قد ترى هذا الإنسان فقيرًا ضعيفًا، وربما عاصيًا لله ﷻ، وقد تراه قبيحًا، وقد تراه وضيعًا في شرفه؛ فتحقره وتزدريه وترفع عليه، وتظن نفسك خيرًا منه، وتكون منزلة هذا الإنسان بحسب خشيته لله ﷻ ومراقبته لله ﷻ ومحبته لله ﷻ؛ أضعافَ أضعافَ ما تظنه أنت في نفسك.

ونبه هنا إلى أن كلامنا عن حرمة احتقار المسلم لا يعني أن مجرد وقوع الإنسان في المعصية يُجيز للمسلم أن يحتقره وأن يزدريه وأن يمتهنه، هذا غير صحيح، ونضرب لذلك مثالًا من سنة النبي ﷺ؛ فقد كان هناك رجلٌ من الصحابة يداعب النبي ﷺ ويضحكه، وكان هذا الصحابي

معروفاً بكثرة مزاحه، ولكنه كان يشرب الخمر كثيراً؛ فيشرب الخمر ثم يُؤتى به فيُجلد ويقام عليه الحد، ثم يرجع مرةً أخرى ويشرب الخمر، ثم يُجلد، فجاء به مرةً من المرات وقد شرب الخمر، فأمر النبي ﷺ الصحابة أن يجلدوه - أن يقيموا عليه الحد-؛ فقال أحد الصحابة: «لعنه الله ما أكثر ما يُؤتى به»؛ أي: في كلِّ مرةٍ يُجلد ويشرب الخمر، يُجلد ويشرب الخمر؛ ألا يتقي الله ﷻ، ألا يستحي من نفسه؛ فلعنه هذا الرجل غضباً لله ﷻ، فسمع النبي ﷺ هذه الكلمة، فقال: (لا تلعنه أما إني قد علمت أنه يحبُّ الله ورسوله) (١).

انظروا! رجل يشرب الخمر، بل يكرر شرب الخمر، والنبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة (لعن في الخمر عشرة، منهم: شاربها) (٢)، فالنبي ﷺ لعن شارب الخمر، وهذا الصحابي إنما قال هذه الكلمة ولعنه حمية لله ﷻ، لكنَّ النبي ﷺ أخبر الصحابي عن أمرٍ في قلب هذا الإنسان المحدود، بإخبار الله ﷻ وإطلاعه لنبئه عليه - وهذا الصحابي لم يعلمه ولم يطلع عليه - وهو محبة هذا الصحابي الذي كان يشرب الخمر لله ﷻ وللنبي ﷺ، فكانت هذه المحبة مانعةً من لعنه.

فكذلك أنتَ قد ترى إنساناً صاحب معصية وصاحب مخالفةٍ لأمر الله ﷻ؛ فتأخذك الحمية فتقول كلمةً تحتقره فيها، فاحتقارك لهذا المسلم لا يجوز، والاحتقار شيءٌ غير الإنكار، فلا بد أن تنكر على هذا العاصي، وتُحذّر منه، وتبيّن ما هو فيه من مخالفة أمر الله ﷻ، وتهجره إن احتاج إلى الهجران، ولكن هذا الإنكار يتقيد بضوابط شرعية وبأصول شرعية وبآداب شرعية، واحتقاره وازدرائه شيءٌ آخر، وذلك - كما ذكرنا بالأمس - لأن الإيمان عندنا: قولٌ وعملٌ، تدخل فيه الأعمال الظاهرة، وتدخل فيه أعمال القلوب، وتفاوت العباد الحقيقي بما في قلوبهم من محبة الله ﷻ، ومن خشيته ومن رهبته ومن مراقبته ومن شكره ومن التوكل عليه والإنابة إليه والحياء منه ﷻ.

فهذه الأعمال التي في القلوب لا تطلع عليها أنت ولا يطلع عليها غيرك، فربما أنت تزدرى الإنسان وتحتقره بحسب ما ظهر لك من أعماله الظاهرة، هذا إذا كان عمله مخالفاً لأمر الله ﷻ،

(١) [صحيح البخاري: (٦٧٨٠)].

(٢) [سنن ابن ماجه (٣٣٨١)، وصححه الألباني].

ولكن يخفى عليك ويغيب عنك شيءٌ عظيم من أعمال القلوب التي تكون في قلب هذا الإنسان. إذن علينا أن نحترز من احتقار الآخرين ومن ازدراءهم؛ فكيف إذا كان هذا الاحتقار والازدراء مبنياً على أمرٍ من أمور الدنيا وليس غضباً لله ﷻ؟ يعني إنسان يحتقر إنساناً لأنه قبيحٌ في منظره، أو إنسانٌ يحتقر إنساناً ويسخر منه لأن ثيابه رثة، وإنسانٌ يحتقر إنساناً آخر لأنه فقير، وإنسانٌ يحتقر إنساناً آخر لأنه جاهل، وإنسانٌ يحتقر إنساناً آخر لأنه ضيع في نسبه، وهذه الأمور كلها لا قيمة لها في ميزان الله ﷻ؛ فالإنسان عليه أن يعرف قدره، وسخريتك بأخيك المسلم واحتقارك له هو وضعٌ من شأنك أنت؛ لأنك ارتكبت عملاً قبيحاً في دين الله ﷻ، فقد يكون هذا الإنسان صاحب توبة وإنابة، وأنت في نفس الوقت تعصي الله ﷻ باحتقاره؛ فقد وضعت من منزلتك ومن مكانتك.

ثم قال الله ﷻ هنا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ﴾؛ لا يسخر طائفة من الناس بطائفة أخرى من الناس، ولا يسخر رجل من رجل آخر، لماذا؟ ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: ربما يكون هؤلاء القوم المسخور منهم خيراً ممن سخر منهم، خيراً عند الله ﷻ، وهذا هو الأمر الذي لا يطلع عليه إلا الله ﷻ علام الغيوب.

قال ﷻ: ﴿وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾؛ يعني: ولا يسخر نساءً من نساء، قال العلماء: كلمة القوم في الأصل تشمل الرجال والنساء، هذا يقوله بعض أهل اللغة، وقال بعضهم: نحن نعلم في عرف الشرع أن الله إذا خاطب المؤمنين وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ فإنه يدخل فيه الرجال والنساء كأبي تكليفٍ شرعي، إلا أن الله ﷻ في هذا الموضوع أفرد ذكر النساء عن ذكر القوم، قالوا: «وذلك لأن السخرية في النساء بعضهم من بعض أكثر من سخرية الرجال بعضهم من بعض»^(١)، فالله ﷻ خصهن بالذكر لما ينتشر بينهن من الازدراء لبعضهن، والاحتقار لبعضهن، والسخرية لبعضهن؛ فلذلك قال الله ﷻ هنا: ﴿وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ﴾ يعني: لا تسخر نساءً من نساء سواء كان بسبب جمالها، أو بسبب مالها، أو بسبب شرفها، أو بسبب حسبها، أو بأي سبب من

(١) [انظر ما قرره الشيخ عن العلماء في: تفسير القرطبي: (٣٢٦/١٦)].

الأسباب الأخرى، لماذا؟! السبب واحد: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

يذكر بعض المفسرين هنا - وهذا يذكرونه هنا ويذكرونه أيضًا في باب الغيبة -: أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: «حسبك من صفة أنها هكذا»، وأشارت إلى قصرها؛ أي يكفيك عيبًا في صفة - وعن عائشة - أنها قصيرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: (لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته)^(١)؛ أي هذه الكلمة البسيطة التي تلفظت بها (لو مُزجت) أي لو خلطناها بماء البحر لغيرت طعم ماء البحر.. لماذا؟ لأنها شيء عظيم، هذا الأمر الذي تكلمت به عظيم.

فإذن الإنسان عليه أن يتجنب هذا الخلق السيء: احتقار الآخرين والمؤمنين، هذا ليس من خلق أهل الإسلام، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره)^(٢)، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)^(٣)، أي يكفيك من الشر الذي تستحق عليه العقوبة من الله صلى الله عليه وسلم أن تحتقر أخاك المسلم، هذا يكفيك ولا تحتاج معه لذنوب آخر، وهذا يدل على أن احتقار المؤمنين كبيرة من الكبائر؛ أي أن من يرتكب هذا الفعل فاسق؛ لأن الفاسق هو مرتكب الكبيرة، فعلى الإنسان أن يحفظ عليه دينه.

وقلنا: لا نخلط بين الأمرين؛ فمن الناس من قد يكون عاصيًا لله صلى الله عليه وسلم، أو يكون مرتكبًا لكبيرة من الكبائر، أو يكون مرتكبًا لبدعة من البدع، فهذا الإنسان نحذر منه وننصحه وننكر عليه ونهجره ويُعاقب إذا استحق العقوبة؛ هذه كلها أشياء جاء بها الشرع.. ولكن هذا شيء، واحتقاره وازدراؤه شيء آخر، وذلك لأن الاحتقار يكون مبنياً على معرفة أعمال الإنسان كلها؛ فعندما تريد أن تقيم هذا الإنسان وأن تعطيه قيمته ومنزلته؛ إما أنك ترفعه، وإما أنك تضعه، هنا لا بد أن تجمع بين خصال هذا الإنسان كلها، وخصاله منها ما هو ظاهر تراه أنت؛ سواء من صفات حسنة أو من صفات سيئة، ومنها ما هو باطن لا تطلع عليه أنت، فقد يكون هذا الإنسان مُحِبًا لله صلى الله عليه وسلم، ومُعَظَمًا لله صلى الله عليه وسلم، ومُستَحِبًّا

(١) [رواه أبو داود: (٤٨٧٥)، وصححه الألباني].

(٢) [متفق عليه، البخاري: (٢٤٤٢)، ومسلم: (٢٥٨٠)].

(٣) [صحيح مسلم: (٢٥٦٤)].

من الله ﷺ بما يفعله من الموبقات؛ فكم من ذنبٍ أورث طاعة؟ كم من ذنبٍ يرتكبه الإنسان ثم بعد ذلك يندم ويستحيي من الله ﷻ ويكثر من الاستغفار وينكسر بين يدي الله ﷻ فيرفعه الله ﷻ درجات؛ بسبب هذا الاستغفار وهذا الحياء.

فعلينا أن نعطي الناس حقهم، وأن نتجنب احتقار المسلمين.

ثم قال الله ﷻ بعدها: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: ولا تعيبوا، ولا يعب بعضكم بعضاً، اللمز هو إظهار عيب الإنسان؛ إما أن يكون باللسان، وإما أن يكون بالإشارة، وإما أن يكون بالفعل، أو بأي طريقة تعيب بها هذا الإنسان، فتظهر عيبه في المجالس وبين الناس.

وتأمل كيف قال الله ﷻ هنا ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وكيف يعيب الإنسان نفسه؟ قال العلماء: وذلك لأن المسلمين كالجسد الواحد، فأنت إذا عبت أخاك المسلم؛ فكأنك عبت نفسك، هذا أحد الأقوال.

ومنهم من قال: إن عيبك لأخيك المسلم يؤدي إلى عيبه لك؛ يعني عندما تذكر ما فيه من العيوب وما فيه من النقائص فتأخذ الحمية ويرد عليك بمثلها؛ فأنت كنت السبب في عيب نفسك. فإما أن المقصود به أنه: لا يعب بعضكم بعضاً كما قال الله ﷻ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وهذه الآية تشمل المعنيين؛ أي لا يتحر الإنسان فلا يقتل نفسه، وكذلك لا يقتل أخاه المسلم؛ لأنك حينما تسفك نفس أخيك المسلم فكأنما قتلت نفسك؛ لأن المسلمين كما قال رسول الله ﷺ: (كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)^(١)؛ فالإنسان لا يعيب أخاه المسلم.

ثم قال ﷺ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: ولا يرمي بعضكم بعضاً بالألقاب السيئة القبيحة، واللقب هو وصفٌ إما يتضمن مدحاً وإما ذمّاً، والمنهي عنه هنا هو: الوصف الذي يكون ذمّاً لأخيك المسلم، يعني: لا يصف بعضكم ولا ينادي بعضكم بعضاً بألقابٍ يكرهاها هذا الإنسان؛ كالأعرج

(١) [حديث صحيح، تقدم في: (ص ٢٩٠٨)].

أو الأعمش أو القصير أو الأسود، مما يكرهه هذا الإنسان.

ويدخل في ذلك مناداة المسلم لأخيه المسلم: يا فاسق يا كافر يا مجرم، إذا لم يكن فيه هذا الوصف، كما قال النبي ﷺ: (من قال لأخيه المسلم يا كافر، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه)^(١)؛ أي إذا كفر الإنسان أخاه المسلم فإذا كان هذا المُكفّر حقيقي يعني يستحق التكفير؛ فذاك هو، وإلا فرجع الأمر على قائله واختلف العلماء في معنى هذا الحديث على سبعة أو ستة أقوال^(٢).

فالمقصود هنا: أن المسلم لا ينادي ولا يبنز أخاه المسلم بلقب يكرهه.

ثم قال الله ﷻ: ﴿يَبْسُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: قبح الاسم الذي هو الفسوق بعد أن تتصفوا بالإيمان، وهذا يحتمل معنيين كما ذكر العلماء: إما أنه بئس أن تصف أخاك المسلم بالفسوق بعد أن اتصف بالإيمان، وإما أنك أنت بمناداتك لأخيك المسلم بلقب يكرهه قد أوقعت نفسك في الفسق؛ فبئس ما أوقعت نفسك فيه بعد إيمانك وبعد صلاحك.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: فمن بلغه هذا ولم يتب عن هذه المعاصي ولم يقلع عنها؛ فهو مستحق لقول الله ﷻ: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وجاءت الآية بصيغة الحصر كأنه لا ظالم إلا من فعل هذا، وهذا يدلنا على عظم هذه الأفعال، وهي من حقوق العباد كما نعلم؛ فالتوبة منها تحتاج إلى أن يُسقط الإنسان حقه؛ فلذلك فإن الإنسان الذي يحتقر أخاه المسلم أو الذي يبنز أخاه المسلم، أو الذي يلمز أخاه المسلم؛ هذا يحتاج إلى توبة صادقة لله ﷻ، يندم فيها ويعزم فيها على عدم الرجوع ويقلع عن ما فعل، ويدعو لأخيه في ظهر الغيب.

ونقف عند هذه الآية وغداً إن شاء الله نتكلم عن الآية الأخرى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



(١) [صحيح مسلم: (٦٠)].

(٢) [ذكر أهمها الإمام النووي في: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٢/٥٠)].

الدرس السادس

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ثم أما بعد..

كنا قد تكلمنا بالأمس على قول الله ﷻ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَبِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وقلنا: إن هذه الآية قد نهت عن ثلاثة أخلاقٍ ذميمة يجب على المسلم أن يتجنبها:

أولها: السخرية من أخيه المسلم. والأمر الثاني: التنازب بالألقاب. والأمر الثالث: هو اللمز.

وقد فصلنا الكلام في هذه العيوب الثلاثة، وقلنا: لا يصلح للمسلم أن يحتقر أخاه المسلم وهو الذي تجمعه به عقيدة الإسلام وإخوة الإيمان ورابطة التوحيد.

❖ [التحذير من سوء الظن وتتبع عورات المسلمين والتجسس عليهم]

ثم قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد ذكرنا في أول السورة^(١) أنها سورة تبيِّن الأسس والقواعد التي يقوم عليها المجتمع المسلم

(١) [كان هذا في الدرس الأول المفقود، والذي لم يصلنا، فلا نحسن الإحالة عليه للأسف].

في التعامل وفي العلاقات في ما بينهم؛ فأمرت بأخلاقٍ يجب على المسلمين أن يأخذوا بها، كما قال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، ونهت عن أخلاقٍ وحذرت منها وأمرت المسلمين أو المؤمنين أن يجتنبوها.

فمن هذه الأخلاق الذميمة التي يجب على المسلم أن يتورع عنها: سوء الظن بإخوانه المسلمين، قال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فحتى لا يقع الإنسان في هذا البعض الذي هو معصية لله ﷻ، والذي هو أذية لأخيه المسلم؛ فينبغي له أن يجتنب كثيراً من الظن، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. وذكر العلماء للظن المذموم ثلاثة أمور [وشروط]:

أولاً: أن يكون هذا الظن في حق المسلم، وليس في حق الكافر، كما قال الله ﷻ هنا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾؛ أي في حق إخوانكم من المسلمين.

الأمر الثاني: أن هذا الظن المنهي عنه هو الذي يستقر في القلب ويثبت ويحققه صاحبه حتى يصبح كاليقين؛ فيبني عليه تصرفاته وعلاقاته مع إخوانه، أما الهواجس والخواطر التي تعبر بنفس الإنسان عبوراً ولا تستقر ولا يبني عليها شيئاً؛ فلا يؤاخذ الإنسان على هذا الأمر.

الأمر الثالث: أن يكون هذا الظن السيء في من ظاهره الصلاح والتقوى، وأما المجاهر بالمعصية والذي يدخل نفسه في مواضع الريبة والشك؛ فهذا هو الذي أوقع نفسه في دائرة التهمة، وقد قال الله ﷻ هنا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، والنبي ﷺ يقول: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)^(١)، وكثيراً ما يتعامل الإنسان مع ما يقع في نفسه من الظنون والأوهام وربما يبني عليها أحكاماً قد يكون هذا الحكم تفسيقاً أو تكفيراً أو هجراناً لأخيه المسلم، وربما غيبةً وربما تحذيراً من أخيه المسلم.. إلى غير ذلك، مما يبني على هذا الظن، فإذا تحقق من هذا وبحث عنه وتفحصه وجده مجرد وهم ومجرد ظنون لا أصل لها في الواقع.

(١) [متفق عليه، البخاري: (٥١٤٣)، ومسلم: (٢٥٦٣)].

وتأملوا الترتيب الذي سارت عليه هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾؛ فأولاً: نهت عن الظن وهي الخواطر التي تقع في قلب المؤمن، ثم إذا أصاب الإنسان ظن السوء بحق أخيه المسلم - أي ظننت بأخيك المسلم ظناً سيئاً - فإن هذا الظن سيدعوك للتحقق منه؛ فيحاول هذا الإنسان الظان بأخيه أن يتفحص وأن يتحقق من صحة هذا الظن؛ فهذا الأمر يدعو للتجسس، ولهذا فإن الله ﷻ بعد النهي عن الظن؛ نهى عن التجسس، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: ما دام أخوك المسلم مستوراً فدعه على حالة ستره، وأما البحث والتفحص ومحاولة التنقيب من هنا ومن هنا في أمور ليست لك بها علاقة ولا يتعلق بها حكم شرعي تحتاجه؛ فهذا أمرٌ منهى عنه.

وقد قال النبي ﷺ: (لا تجسسوا ولا تحسسوا)^(١)، وبعض العلماء قال: إن التجسس يكون في أمور الشر، والتجسس يكون في أمور الخير، كما قال الله ﷻ: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وبعض العلماء قال: يُطلق كل منهما على الآخر؛ يعني يطلق على التجسس بأنه تجسس ويطلق على التجسس بأنه كذلك تجسس؛ فالله ﷻ هنا نهى عن التجسس، والتجسس المذموم هو الذي يكون في حق المؤمنين، ويكشف فيه عن عورات المسلمين، ويبحث عن عيوب المسلمين، ويحاول أن يطلع على خفايا أخطاء هؤلاء المسلمين.

أما من جاهر فهذا لا تحتاج للتجسس عليه؛ لأنه أعلن بمعصيته ومخالفته لأمر الله ﷻ.

إذن التجسس المنهي عنه هنا هو التجسس الذي يكون بحثاً وتنقيباً عن عيوب المسلمين وعن عورات المسلمين، والنبي ﷺ يقول: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يفضحه الله ولو في عقر بيته)^(٢)؛ فالإنسان إذن منهى عن تتبع عورات المسلمين، كما نهى أيضاً عن غيبة

(١) [صحيح مسلم: (٢٥٦٣)].

(٢) [رواه أحمد: (١٩٧٧٦)، وأبو داود: (٤٨٨٠)، وقال الألباني: «حسن صحيح»].

المسلمين.

❖ [بيان حرمة الغيبة وخطورها]

وقلنا: إن الذي يدعو إلى التجسس هو سوء الظن، فلهذا قال الله ﷻ هنا: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، ثم نهى الله ﷻ بعد ذلك عن الغيبة، وهي تكون نتيجة للتجسس، فالإنسان إذا ظن بأخيه ظنَّ السوء، ثمَّ حاول أن يطلع أو يتحقق من صحة ذلك الظن الذي وقع في نفسه؛ فهذا سيدعوهُ ويدفعهُ إلى التحدث عن أخيه المسلم بما يكره، وهذه هي الغيبة.

والنبي ﷺ نهى عن الغيبة، وعندما سُئل عن الغيبة قال: (ذكركَ أخاك بما يكره)، قيل: «أرأيت إن كان في أخي ما أقول»؛ أي أرأيت إن كان في أخي المسلم ما أقول فيه من العيوب، فيه بعض العيوب التي يمكن أن أتحدث بها، قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَه)^(١)؛ إذن البهتان أشدُّ من الغيبة، والغيبة نُقلَ غيرُ واحدٍ من العلماء أنها كبيرةٌ من الكبائر، وهي محرمةٌ باتفاق العلماء، وبدلالة الكتاب الصريحة، وبدلالة السنة الصحيحة أيضًا، فقد قال الله ﷻ هنا: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، والأحاديث في النهي عن الغيبة كثيرة.

والغيبة هي أعظم ما يفسد العلاقات بين المسلمين.

والفرق بين الغيبة والنميمة؛ أن الغيبة هي أن تذكر أخاك في المجالس بما يكرهه، والنميمة هو أن ينقل الإنسان كلام هذا لهذا، وكلام هذا لهذا؛ ليُفسد بينهما: (لا يدخل الجنة قتات)^(٢)، (ولا يدخل الجنة نمام)^(٣)، كما قال النبي ﷺ.

وفي هذه الآية نهى الله ﷻ نهياً صريحاً عن الغيبة فقال: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ثم ضربَ لهذه الغيبة مثلاً يُنفِّرُ من هذا العمل القبيح؛ فقال تعالى: ﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، هذه هي حالة المغتاب؛ كحالة إنسان جلسَ على جثة أخيه وبدأ يُقطع لحمها ويأكلها، وهذا الأخ هو

(١) [صحيح مسلم: (٢٥٨٩)].

(٢) [متفق عليه، البخاري: (٦٠٥٦)، ومسلم: (١٠٥)].

(٣) [صحيح مسلم: (١٠٥)].

إنسان ميت؛ هل هناك إنسان يمكن أن يقبل مثل هذه الصورة أو يشتهي مثل هذا اللحم، هذا هو حال المسلم الذي يغتاب أخاه المسلم.

قال العلماء: وجه التشبيه من أين؟

أولاً: هذا الأخ أنت تأكل لحمه فكذلك أنت تتحدث عنه فهذا الكلام الذي تقوله كأنك تأكل لحم أخيك.

الأمر الثاني: هذا الإنسان هو غائبٌ ليس موجوداً في مجلسك، لا يدري بما تقوله أنت عنه، فكذلك هذا الميت لا يدرك ما يقال عنه، فكأن هذا الإنسان الغائب هو إنسان ميت وأنت تأكل لحمه وتتفكه به؛ فكما أن الإنسان يكره هذه الصورة وهو أن يأكل لحم أخيه المسلم الميت، فكذلك يجبُ عليه أن يكره هذا الحديث عن أخيه، وأن يكره إعاية وعيب أخيه المسلم الغائب عنه، فقال الله ﷻ هنا: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، نعم لا يحب أحدنا أن يأكل لحم أخيه ميتاً، ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

وذكر العلماء أن هناك بعض الحالات التي تجوز فيها الغيبة، وذلك إذا كان هناك مقصود شرعي ولا يمكن الوصول إلى هذا المقصود الشرعي إلا بهذه الطريقة.

إذن تجوز الغيبة بضابطين، الضابط الأول: أن يكون هذا الذي ستتكلم عنه هذا العيب ستذكره لمقصود شرعي معتبر.

والأمر الثاني: أنك لا تستطيع أن تتوصل إلى هذا المقصود إلا عبر ذكرك أخاك بما يكره.

وذكر العلماء ستة صور لهذه الحالات التي تجوز فيها الغيبة، نذكر بعضها^(١):

الحالة الأولى: حالة التظلم، قالوا: لو أن إنساناً ظلم إنساناً؛ فأخذ ماله أو ضربه ظلماً، أو ظلمه بأي نوع من أنواع الظلم؛ فلهذا الإنسان أن يتكلم عمن ظلمه في الموضع الذي يحتاج فيه لبيان

(١) [ذكرها النووي في: رياض الصالحين، ت. الفحل (ص ٤٢٥)، وهي: (١) التظلم، (٢) الاستعانة على تغيير المنكر، (٣) الاستفتاء،

(٤) تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، (٥) أن يغتاب المجاهر بفسقه أو بدعته، (٦) التعريف كالأعمش والأبرص].

الظلم، مثلاً: يذهب إلى القاضي ويقول: إن فلاناً ظلمني، خانني، أكل مالي.. إلى غير ذلك من الأشياء التي يحتاج فيها لبيانه، فالمقصد الشرعي هنا هو: استرجاع حقه. والأمر الآخر: أنك تريد أن تبين حقيقة هذا الظلم حتى يحكم القاضي أو من أراد أن يحكم لك بما تستحقه.

وقد قال النبي ﷺ: (مَطْلُ الْغَنِيِّ يَحِلُّ عَرْضُهُ وَعَقُوبَتُهُ) ^(١) أي: الإنسان إذا كان غنياً يستطيع أن يقضي دينه، ثم بدأ يماطل في هذا الدين، يطلبه الدائن ولكن الغني يماطل، يعني يتأخر ويتعاس في قضاء هذا الدين؛ فلماذا الإنسان أن يتكلم على هذا الغني ويقول: هو ظلمني وأكل مالي وما ردّ ديني.. وإلى غير ذلك؛ إذن هذه هي الحالة الأولى وهي حالة التظلم.

الحالة الثانية: حالة الاستفتاء؛ يعني لو أن إنساناً عنده نازلة وجاء إلى أحد العلماء يستفتيه فيقول مثلاً: ضربني فلان أو خانني فلان أو ظلمني فلان في كذا وكذا، فما الحكم؟ هذا ليس قضاءً، ولكن هذا في الاستفتاء؛ يعني يبحث عن الحكم الشرعي الذي يتعلق بهذا الشخص، ففي هذه الحالة لا تعد هذه غيبة، واستدل العلماء لهذه الحالة بأن هند ﷺ وهي زوجة أبي سفيان بن حرب جاءت إلى النبي ﷺ وقالت: «يا رسول الله إن أبا سفيان رجلٌ شحيح، لا يعطيني وأبنائي ما يكفيني أفأخذ من ماله؟» قال ﷺ: (خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَأَبْنَاءَكِ) ^(٢).

إذن هنا جاءت ووصفت زوجها بأنه شحيح يعني بخيل، ومع ذلك لم ينكر عليها النبي ﷺ.

الحالة الثالثة: التعريف، إذا كان هناك شخصٌ صاحب بدعة، أو صاحب فسق، أو صاحب فجور، أو جاءك شخصٌ يستنصحك في حق رجل لمعاملة ستكون بينهما وأنت تعلم صفةً ذميمةً في هذا الشخص؛ فهنا يجب عليك أن تذكر ما تعتقده في هذا الشخص، وأن تبين ما فيه من العيب ما دام يُبنى عليه مصلحة شرعية، وفي هذا أن النبي ﷺ، جاءت امرأة وقالت: خطبني فلان وفلان؛

(١) [حديث: (مطل الغني ظلم) متفق عليه، رواه البخاري: (٢٢٨٧)، ومسلم: (١٥٦٤)، وحديث: (لبي الواجد يحل عرضه وعقوبته) رواه أحمد: (١٧٩٤٦)، وابن ماجه: (٢٤٢٧)، وأبو داود: (٣٦٢٨)، وحسنه الألباني].

(٢) [صحيح البخاري: (٧١٨٠) وفي آخره زيادة (بالمعروف) لم يذكرها الشيخ، والعلماء مختلفون هل هذا الحديث دليل للفتيا أم للقضاء على الغائب؟ وكل يتزع به على ما هو الأقوى عنده، والله أعلم].

يعني تستشيريه من تتزوج منهما، الأول هو معاوية بن أبي سفيان، والآخر هو أبو جهم؛ فقال النبي ﷺ: (أما معاوية فرجلٌ صعلوك لا مال له) فذكره النبي ﷺ بما يعرفه من حاله، وأما أبو جهم فقال النبي ﷺ: (إنه رجلٌ لا يضع العصا عن عاتقه)، وفي رواية أخرى (إنه ضراب للنساء)، فذكر النبي ﷺ الصفتين اللتين تتعلقان بهذين الصحابييين، حتى قال لها: (انكحي فلاناً) ^(١)؛ يعني أسامة ﷺ.

كذلك من هذا الباب: تجريح الشهود والرواة؛ فالشاهد إذا جاء القاضي، وأراد أن يعدله فسألك عنه: ماذا تعرف عنه؟ وأنت تعرف أنه فاسق؛ فتقول: يفعل كذا، ويفعل كذا؛ فهذا جائز، لأن شهادتك سيئنى عليها حكمٌ شرعي.

ومن هذا الباب أيضًا: ما يفعله علماء الحديث عندما يقولون مثلاً: هذا الراوي كذاب، وهذا متهم، وهذا كذا، ويذكرون بعض الصفات في بعض الرواة؛ لأن ذكر هذه الأشياء يترتب عليها مصلحة شرعية؛ وهي المحافظة على السنة، إذن هذا هو الموطن الثالث الذي تجوز فيه الغيبة.

الحالة الرابعة - كما قال العلماء -: إذا احتاج الإنسان أن يستعين بشخصٍ في إنكار منكر؛ أي لو كان هناك إنسان يفعل منكرًا، وأنت لا تستطيع أن تنكر عليه، ولا أن تمنعه مما هو فيه، وتعلم أنه هناك شخصًا له سلطة وقدرة على منع هذا الإنسان من منكره وإزالته عنه؛ فهنا يجوز لك أن تذهب لهذا الشخص وربما يجب عليك، وأن تقول له: إن فلانًا يفعل كذا، ويفعل كذا، هذا من باب الغيبة؛ لأنك تذكره بما يكرهه، ولكن في هذه الحالة جُوزت الشريعة للإنسان أن يستعين في إنكار المنكر بشخصٍ ولو ذكر الآخر بما فيه من المنكر.

هذه بعض المواضع التي تجوز فيها الغيبة ونكمل غداً.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين



(١) [صحيح مسلم: (١٤٨٠)] من حديث فاطمة بنت قيس ﷺ.

الدرس السابع

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وعلى من اهتدى بهديه وسار على سنته إلى يوم الدين، ثمّ أما بعد...

فإن الوقت لا يتسع للتفصيل الذي كنا نسير عليه في تفسير الآيات، ولذلك سنقتصر على ذكر المعاني التي يتضح بها المعنى العام للآية من غير دخول في كثير من التفاصيل والأمور الأخرى التي ربما كنا نشير إليها بين حينٍ وآخر؛ فنحاول إن شاء الله أن نمرّ على ما بقي من آيات سورة الحجرات، وكنا قد وقفنا عند قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وقلنا: إن هذه الآية قد نهت عن ثلاثة أمور وأوجبت على المسلمين أن يتقوها وأن يجتنبوها: أولها: سوء الظن بالمسلمين، فإنه كما قال النبي ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ)^(١).

والثاني: التجسس ومعناه البحث والتحسس لمحاولة الاطلاع على عورات المسلمين، وكما قال النبي ﷺ في الحديث الذي ذكرناه بالأمس: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في

(١) [متفق عليه، البخاري: (٥١٤٣)، ومسلم: (٢٥٦٣)].

قلبه، لا تغتابوا المؤمنين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عوراتهم يفضحه الله ولو في عقر داره^(١)؛ فالمسلم إذن مطالب بأن يستر على أخيه المسلم، لا أن يفضحه، وأن يُشهر به، ويذكر معاييه في المجالس وينشرها بين الناس، وربما يفرح بما يكتشفه من الأخطاء والعيوب والزلات والهفوات التي يقع فيها المسلم، فهذا أخوك: سترك له هو سترك أنت، كما ذكرنا في الآية السابقة التي قبل هذه؛ قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَبِّ﴾ [الحجرات: ١١].

والأمر الثالث الذي نهت عنه هذه الآية: الغيبة، وقلنا: إن الغيبة داءٌ عضال إذا انتشر في المجتمعات؛ فإنه يفرق ويقطع أو اصرها وما بينها من الروابط وتورث الشحناء والبغضاء والعداوة، وتجعل الإنسان المسلم يكد لأخيه المسلم، ويحاول أن يوقعه فيما يكرهه؛ فلهذا نهى الله ﷻ عنها أشد النهي، ونهى عنها النبي ﷺ أشد النهي، وورد في ذلك أحاديث متعددة لا مجال لذكرها والمرور عليها، وكلنا نعلم الأحاديث، كقول النبي ﷺ في حجة الوداع: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم كحرمة يومك هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)^(٢)، فالنبي ﷺ سَوَّى في الحرمة بين هذه الأمور، الدماء؛ يعني فلا تسفكوها بغير حق، والأموال؛ فلا تأخذوها بغير حق، والأعراض؛ فلا تنتهكوها.

ولذلك - كما ذكر شيخ الإسلام وغيره - تجد الإنسان يتورع كثيراً عن سفك دم أخيه المسلم، ويتورع عن أخذ مال أخيه المسلم بغير حق، ولكنه لا يتورع عن تقطيع عرض أخيه المسلم؛ فتجده في المجالس يخوض في عرض هذا، ويخوض في عرض هذا، ويذكر معايب هذا، ويذكر أخطاء هذا، وهو لا يدري بذلك أنه قد ارتكب محرماً لا يكاد يقل في حرمة عن سفك دم المسلم. بل كثير من الناس يرضى أن تقتله ولا يرضى أن تتكلم في عرضه، ولهذا قال النبي ﷺ: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم)^(٣).

(١) [رواه - بلفظ قريب - أحمد: (١٩٧٧٦)، وأبو داود: (٤٨٨٠)، وقال الألباني: «حسن صحيح»].

(٢) [تقدم في: (ص ٢٤٧)].

(٣) [سبق قبل قليل].

وذكرنا بالأمس بعض الصور التي استثناها العلماء وجازَ فيها غيبة المسلم، وقلنا: ضابطُ ذلك أن يكون هناك مصلحةٌ شرعيةٌ تدعو إلى ذكر هذا العيب، وأن لا يمكن التوصل لهذه المصلحة إلا عبر الغيبة، فإذا وجد هذان الشرطان فإنها تجوزُ، بل ربما تجبُ؛ إذا ترتب عليها دفعُ ضررٍ محققٍ في حق المسلم.

❖ [أحكام التوبة وفضلها]

ثمَّ قال الله ﷻ بعد ذلك في آخر الآية: ﴿أَيُّبُ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فأمر أولاً: بتقوى الله ﷻ، وقد مرَّ معنا هذا الأمر مكرراً في هذه السورة وفي غيرها من السور، فالله ﷻ يأمر بتقواه؛ لأنها هي الحائل بين المسلم وبين اقتحام محارم الله ﷻ، والتقوى: أن تجعل بينك وبين المحارم وقاية وحاجز يمنعك من دخولها، وهذا الحاجز هو خشية الله ﷻ ومراقبة الله ﷻ، وهو العلم والتيقن بأنك معروضٌ؛ ستعرض على الله ﷻ، وأنه سيسألك عن كل صغيرٍ وكبيرٍ من أعمالك، سواءً منها ما يتعلق بحق الله ﷻ، أو ما يتعلق بحقوق العباد؛ فالإنسان إذن مأمور بتقوى الله ﷻ، وقد أمر الله ﷻ بالتوبة في كتابه؛ فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

والتوبة قسمان:

١ - التوبة العامة: بمعنى أن الإنسان يتوب توبةً عامةً من كل ذنب ارتكبه، فالإنسان لا يستطيع أن يستحضر ذنوبه كلها في كل حين، ولكن يستطيع أن يعزم بقلبه على أن لا يعصي الله ﷻ ما استطاع، وأنه سيقلع عن الذنوب التي كان يفعلها، فهذه توبة عامة.

٢ - التوبة الخاصة: التي تتعلق بذنبٍ معين يعلمه الإنسان.

قال العلماء: إن التوبة واجبة، وتصحُّ التوبة من بعض الذنوب، مع عدم التوبة من بعضها؛ أي الإنسان قد لا يتوب من ذنبٍ معين، ويتوبُ من ذنبٍ آخرَ على وجه الخصوص.

فالله ﷻ أمر المؤمنين بالتوبة، فقال ﷻ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١]، ليس هناك مؤمنٌ على وجه الأرض لا يحتاج إلى التوبة؛ لأنه ليس هناك أحد معصوم من معصية الله ﷻ، وأقل ذلك:

التقصير في حق الله ﷻ، فالمسلم مهما عبد الله ﷻ، ومهما صلى، ومهما صام، ومهما سجد، ومهما ذكر.. إلا أنه لم يؤد شيئاً من شكر نعم الله ﷻ، فنعم الله ﷻ عليه عظيمة، قال ﷻ: ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وإذا كنت أنت عاجزاً عن عدِّ نعم الله فكيف ستؤدي شكرها؟!!

وقد جاء عن أنس ﷻ أنه قال: «توضع يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوانٌ للحسنات وديوانٌ للسيئات - المعاصي - وديوانٌ للنعم - ديوانٌ لنعم الله ﷻ - فيقول الله ﷻ: قايسوا بين نعمي وبين عبادات عبدي»^(١) أي: انظروا هل تكافئها؟ فأى عمل يمكن أن يكافئ نعم الله ﷻ؟! لا يوجد.

فإنعم الله ﷻ تستهلك الطاعات كلها؛ فتبقى المعاصي تحتاج إلى شيء يقابلها من الحسنات، ولذلك لن يدخل الجنة أحد بعمله، وإنما برحمة الله ﷻ، ومع ذلك - كما قلنا - فإن الإنسان مطالب بالتوبة، والتوبة - كما ذكر العلماء - لها شروطٌ، فليست هي مجرد كلمة يقولها الإنسان ويردها على لسانه، وإنما هي عمل يجتمع فيها عمل الجوارح وعمل القلب أيضاً.

١ - وأول هذه الأعمال أو أول هذه الأمور التي يحتاجها التائب: العزمُ على عدم العود إلى هذا الذنب، سواء كان هذا الذنب مما يتعلق بحقوق الله ﷻ أو ما يتعلق بحقوق العباد، الإنسان يعزم بقلبه عزيمة قاطعة أن لا يرجع إلى هذا الذنب مرةً أخرى.

٢ - الأمر الثاني: الندم على ما فعله؛ يعني الانكسار والحياء والندم، لماذا هو اقترف هذا الذنب في حق الله ﷻ أو في حق أحدٍ من عباده.

٣ - الأمر الثالث: أن يقلع عن الذنب؛ فلا يصح أن يكون الإنسان مُنغمساً في معصية من المعاصي ويعبُّ منها عباً ويقول مع ذلك: أنا أتوب إلى الله ﷻ! وإنما التوبة لا بد أن يكون فيها أعمال الجوارح، بأن يقوم المسلم بمفاصلة هذه المعصية، وهذا الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم تم بالراهب مئة، فأرشده العالم إلى الخروج من هذه الأرض التي يرتكب فيها المعصية،

(١) [هكذا أورده ابن القيم موقوفاً عن أنس، وأورده موقوفاً عليه: الدينوري في «المجالسة» (حديث: ٥) وضعفه محققه، ولكن قال ابن القيم في: رسالة إلى أحد إخوانه (١/٥٢): هذا ثابتٌ عن أنس. والظاهر أنه مقبول موقوفاً، والله أعلم.]

ومفاصلتها والابتعاد عنها فإنها أرض سوء^(١).

قال العلماء: هذه الشروط تُطلب إذا كان الذنب حقاً لله ﷻ، فأما إذا كان الذنب من حقوق العباد فيُضاف إليه شرط آخر وهو: التحلل من صاحب هذا الحق، أي طلب الصفح والعفو من صاحب هذا الحق، سواء كان هذا الحق مادياً كأموالٍ أخذتها منه بغير حق، أو كان هذا معنوياً كالغيبة والنميمة والكذب والافتراء عليه، ولكن قال العلماء: بعض المعاصي الشخصية كالغيبة ربما يؤدي ذهابك لأخيك الذي اغتبتته وتحللكت منه؛ إلى زيادة العداوة، فقالوا في هذه الحالة: يكفي الإنسان لتحقيق التوبة أن يذكر من اغتابه في المجالس التي استنقصه فيها؛ بأن يمدحه ويذكر ما فيه من المحاسن؛ حتى يتحلل مما ارتكبه، وأن يدعو له في ظهر الغيب.

ولهذا قال الله ﷻ هنا في آخر الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾؛ يعني أن الإنسان لا ييأس من رحمة الله ﷻ وعليه أن يتوب إلى الله ﷻ من كل ذنب قبل أن يحال بينه وبين التوبة، فإذا خرج الإنسان من هذه الدنيا وعلى ظهره أوزار من حقوق العباد، أو من حق الله ﷻ؛ فخلاص سيحاسب على هذه الأعمال، أما ما دام في الدنيا وفي السعة وبإمكانه التوبة والإقلاع والندم والاستغفار والإكثار من الحسنات التي تكفر السيئات؛ فالباب أمامه مفتوح، ما الذي يمنعه؟

قال ﷻ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷻ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)^(٢).

إذن نحن محتاجون إلى التوبة ومحتاجون إلى تقوى الله ﷻ التي وصى بها الأولين والآخرين، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

❖ [تفاوت مراتب الناس وتفاضلهم بحسب تقواهم لله تعالى]

ثم قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

تبيّن لنا هذه الآية الميزان الصحيح عند الله ﷻ في تفاوت مراتب الناس؛ فذكر الله ﷻ ابتداءً

(١) [قصة قاتل المئة نفس وتوبته في: صحيح مسلم (٢٧٦٦)].

(٢) [رواه أحمد: (٢١٣٥٤)، والترمذي: (١٩٨٧)، وقال: «حسن صحيح»].

الأصل الذي يتساوى فيه جميع الناس الأسود والأحمر والأبيض، العبد والسيد، القريب والبعيد.. كلهم كما قال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، وانظروا كيف خاطبهم بالناس، وما قال: يا أيها الذين آمنوا، فهذا خطاب لجميع الناس، وهذا الخطاب ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ من المعهود في السور المكية، وليس في السور المدنية، فالسور المكية هي التي تجد فيها ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ لأن الخطاب كان عامًّا ولم يكن للمسلمين مجتمع خاص بهم يفردهم به عن الكفار، وذلك مثل قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وغيرها من الآيات.

وقول الله ﷻ هنا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، يعني بهما: آدم وحواء؛ أي كلكم يرجع أصلكم إلى آدم وحواء، فالنسب الطيني من حيث أصل الخلقة لا تفاوت فيه بين الناس، وكلهم فيه سواء، كما قال النبي ﷺ: (كلكم لآدم)^(١)، وكذلك قال الله ﷻ هنا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، ثم بعد ذلك فرق الله ﷻ العباد وجعلهم شعوبًا وهم أعم من القبائل، والقبائل جزء من الشعوب؛ أي أن الشعوب تتركب من القبائل، وهكذا.. وهي ست مراتب يذكرها العلماء^(٢).

وقد ذكر الله ﷻ ويبيِّن لنا ما هي الحكمة من جعل الناس شعوبًا وقبائل؛ فقال ﷻ: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾؛ أي ليقع التعارف فيما بينكم فينتسب هذا إلى هذه القبيلة، وينتسب هذا إلى هذه القبيلة، أو إلى هذا الشعب، فكون الإنسان ينتمي إلى شعبٍ من الشعوب أو إلى قبيلة من القبائل هذا بمجرد لا يدل على التفاضل، وإنما الحكمة فيه فقط ليقع التعارف بين الناس: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾. ثم بيَّن الله ﷻ الميزان الحقيقي الذي على الناس أن يتنافسوا فيه؛ وهو الذي تكون به درجاتهم ومنزلتهم عند الله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾ ليس صاحب المال، ولا صاحب الجاه، ولا صاحب السلطان، ولا صاحب الحكم، ولا صاحب الجمال، ولكن الكريم عند الله ﷻ هو التقي، وهذا باب يستطيع كل إنسان أن يجتهد فيه هذه المراتب، يستطيع كل واحد من الناس

(١) [رواه الترمذي: (٣٩٥٦)، بلفظ: (والناس بنو آدم)، وقال: «حسن صحيح»].

(٢) [انظر: رسائل المقرئزي (ص ٧٧) قال: «والعرب كلها على ست طبقات: شعوب، وقبائل، وعمائر، وبطون، وأفخاذ، وفصائل»].

أن يبذل جهده ليكون تقياً لله ﷻ، فالأعمال أمامك والقدرة عندك والله ﷻ موجود لتستعين به في أداء الطاعات واجتناب المحرمات، فما الذي يمنعك من تقوى الله ﷻ لتكون من الأكرمين؟ وتكون بعد ذلك من المقدمين؟

وقد جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تؤكد هذا المعنى، فالنبي ﷺ سأله الصحابة ﷺ فقالوا: «من أكرم الناس؟»، قال: (أتقاهم لله) ^(١)، أتقاهم لله ﷻ، والتقوى تشمل القيام بالطاعات واجتناب المحرمات، وعندما نقول: أداء الواجبات والطاعات؛ فهذا بابٌ واسعٌ عظيم فيه يتنافس المتنافسون، سواء كان من الفرائض العينية، أو الواجبات الكفائية، أو المستحبات، أو ترك المشتبهات والمكروهات، وكذلك اجتناب المحرمات.

إذن هذه هي الحقيقة التي يتفاوت بها الناس، أما من أراد أن يفاضل بين الناس بالقومية أو بالشعبوية أو بالمال أو بالجاه أو بالقوة أو بالعقل أو بغير ذلك؛ فهذه كلها لا ميزان ولا قيمة لها عند الله ﷻ، قال ﷻ: (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) ^(٢)؛ فلا فضل لعربي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، قال ﷻ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ولهذا فمن المعاني التي دائماً ما نكررها: أن الذين يريدون أن يغرسوا في قلوب شعوبهم -سواء كانت الشعوب العربية أو غيرها- الترفع على بقية الشعوب بمجرد الانتماء لهذا الشعب أو لغيره؛ فهؤلاء قد ناقضوا وخالفوا الميزان الشرعي الذي جاء به كتاب الله ﷻ، فالميزان الذي جاء به كتاب الله ﷻ هو: تقوى الله ﷻ، وأما الصورة والجمال والمال والجاه والقومية والوطنية والمصلحة المشتركة.. وغير ذلك؛ فهذه كلها لا قيمة لها عند الله ﷻ.

وأذكر هنا حديثاً يبين لنا أن الميزان عند الله ﷻ هو بالأعمال الصالحة التي يقوم بها العبد، فقد كان النبي ﷺ في طريقه إلى غزوة فجاءه رجل وقال: «يا رسول الله إني رجل أسود اللون قبيح المنظر منتن الريح» -هكذا يقول هذا الرجل عن نفسه-، قال: «أرأيت إن قاتلت هؤلاء فقتلت

(١) [صحيح البخاري: (٣٣٨٣)].

(٢) [تقدم في: (ص ٢٦٣١)].

فأين أنا؟» قال ﷺ: (في الجنة)، فقاتلهم وقُتل هذا الرجل، فقال النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده إنه لمن ملوك الجنة)^(١).

هذا الرجل لا يلبس الكرافات، ولا يخفف لحيته، ولا يسرح شعره يمينا ولا يساراً، وليس مفتوناً بحضارة غربية، ولا بتقدم موهوم، وإنما كان عمله فقط: «إن قاتلت هؤلاء؛ فقتلت فأين أنا؟» قال: (في الجنة)، وهذا الرجل هو الذي يقول عن نفسه: لوني أسود! شكلي قبيح! رائحتي متنتة! هذا أنا. إذن فالذين يحاولون أن يفاضلوا بين الناس بهذه المعايير الأرضية التي ابتلوا بها والتي غزتهم من الشعوب المادية التي تعطي قيمة للناس بحسب غناهم وبحسب مالهم وبحسب جاههم؛ هؤلاء لا يدركون هذا الميزان الشرعي الذي جاء به كتاب الله ﷻ.

ثم قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ﴾ فالله ﷻ هو الذي يعلم التقي ويعلم الصالح، والله ﷻ يعلم المفسد من المصلح؛ فما في القلوب لا يعلمه إلا الله ﷻ، والتقوى - كما قلنا - مقسمة على أعمال الجوارح، ومقسمة أيضاً على أعمال القلوب، وفيها يتنافس المتنافسون.

❖ [كراهية تزكية النفس، وبيان أن الجهاد دليل صحة الإيمان وصدقه]

ثم قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]؛ هؤلاء الأعراب أقوامٌ دخلوا في الإسلام، وفي أول دخولهم للإسلام زعموا أنهم قد بلغوا حقيقة الإيمان؛ أي أن الإيمان قد تمكن في قلوبهم، وأنهم قد أتوا بحقائقه؛ فقال الله ﷻ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا﴾ أي: آمنا إيماناً حقيقياً راسخاً؛ فقال الله ﷻ: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ وليس المقصود أنكم كفار.. كلا، ولكن المراد أن الإيمان المتمكن في القلوب والذي يأتي به صاحبه بحقائقه؛ هذا لم يدخل في قلوبكم بعد.

وقوله ﷻ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ استدلل بهذه الآية بعض العلماء

(١) [ذكره الشيخ بالمعنى، ورواه البيهقي بنحوه في الشعب: (٤٣١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (١٣٨٢)].

على أن الإيمان والإسلام مختلفين وأن الإيمان أخص من الإسلام فكل مؤمن مسلم وكل محسن مؤمن ولكن ليس كل مسلم مؤمناً ولا كل مؤمن محسن؛ فالإيمان أخص من الإسلام، والإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

وقول الله ﷻ هنا: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ معناه: لم يدخل الإيمان في قلوبكم بعد؛ بمعنى الدخول المتمكن الذي تحصلون معه على حقيقة الإيمان.

ثم قال سبحانه تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: إذا أطعتم الله ﷻ وأطعتم رسوله لا يُنقصكم من أعمالكم شيئاً، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أي: وما أنقصناهم من عملهم من شيء فلا يخافوا ظُلماً ولا هُضماً، فحَقُّك لا يضيع عند الله ﷻ، فإذا أدت طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ على الوجه الذي أمرت به؛ فلا تخاف أن يضيع هذا العمل الصالح.

وقول الله ﷻ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هذه الآية تدلنا على أن الإنسان عليه أن لا يزكي نفسه؛ لأنه لا يعرف حقيقة نفسه، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]؛ فالله ﷻ هو الذي يعلم السر وأخفى، وهو الذي يعلم تقواك ويعلم قدرها، ويعلم إن كنت صادقاً فيها، وهو الذي يعلم إيمانك ويعلم قدره، ويعلم إن كنت صادقاً فيه، فالإنسان عليه أن لا يغتر بعمله؛ لماذا؟

أولاً: لأن هذا العمل قد يكون متضمناً لأمر يمنع من قبوله عند الله ﷻ وأنت لا تشعر.

ثانياً: أنك لا تدري أبقى هذا العمل بعد أدائه أو لا يبقى، فقد ترتكب من المعاصي ما يؤدي إلى إحباط هذا العمل.

ثالثاً: إنك لا تدري أتموت على الإيمان أم لا تموت على الإيمان.

فالإنسان عليه إذن أن لا يغتر بعمل صالح قام به، ولكن يشكر الله ﷻ على أن وفقه لأداء هذا العمل، سواء كان هذا العمل صلاةً أو ذكراً أو تلاوةً أو تهجداً أو جهاداً أو إعداداً أو نصحاً أو أمراً

بمعروف أو نهيًا عن المنكر أو تعلمًا أو تعليمًا، كل عمل صالح وفقك الله ﷻ إليه فاشكر الله ﷻ عليه وأكثر من شكر الله ﷻ على هذا العمل، ولا تغتر به، لا تغتر بهذا العمل، ولا بأس أن تفرح به من باب أن الله ﷻ يسره عليك ووفقك إليه.

ثم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فهؤلاء هم المؤمنون الذين كمل إيمانهم، والذين رسخت قلوبهم في الإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ أي الكاملون الذين آمنوا بالله ﷻ؛ آمنوا بألوهيته وبربوبيته وبأسمائه وصفاته ﷻ ﴿وَرَسُولِهِ﴾ وآمنوا برسوله أيضًا، فصدقوا النبي ﷺ فيما أخبر وأطاعوه فيما أمر وانتهوا عن ما عنه نهى وزجر، وكانوا مجتهدين في طاعة الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ فقلوبهم راسخة في الإيمان، وهم على يقين لم يتطرق إليهم شك ولا ريب ولا تذبذب ولا تردد، وإنما ثبتت قلوبهم ورسخت في حقيقة الإيمان، فحال أحدهم في حال السعة كحالته في حال الشدة، وحاله في حال العسر كحالته في حال اليسر، وحاله في حال الكرب كحالته في حال الفرج، قلبه راسخ متعلق بالله ﷻ ويعلم أن الله ﷻ هو الذي يقلب أمره، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ هذا هو المؤمن الحق.

ثم إنهم أضافوا على إيمانهم وطاعتهم لله ﷻ أمرًا آخر وهو أنهم: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ إذن الجهاد هو عنوان الصدق، قال الله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ فالذين جمعوا بين هذه الأمور -بين الإيمان بالله ﷻ والإيمان برسول الله ﷻ وقد لا يكفي هذا وحده-؛ لا بد لهم من البرهان، ولا بد من البيّنة، ولا بد من وجود الإثبات لهذه الدعوى: ما هي؟ هو الجهاد في سبيل الله، لماذا؟ لأن الجهاد هو الساحة التي يقدم فيها الإنسان السلعة التي طالبه الله ﷻ بها، قال ﷻ: ﴿*إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]، فإذا كنت مؤمنًا حقًا بالله وبرسوله فالله ﷻ يقول لك: إني قد اشتريت منك نفسك وثمان نفسك هو الجنة فقدها.. وأين تقدمها؟ في ساحات الجهاد، فإذا وفقت لهذا الأمر وقدمت نفسك بسخاء وبرضا، وأنت تطلب الشهادة وتجاهد في سبيل الله ﷻ؛ فهذا من توفيق الله ﷻ، وهو من علامات الصدق.

إذن قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالذي يدفع عن الإنسان الريب والذي يعزز صدقه في نصرته دين الله ﷻ، وفي إيمانه بالله ﷻ، وفي حبه لله ﷻ؛ هو الجهاد في سبيل الله، وذلك لأنه في الجهاد يقدم نفسه لله ﷻ وهي أعلى ما يملك، ولأنه به يترك الدنيا كلها وراءه من أجل إرضاء الله ﷻ، فيترك بيته وأهله وتجارته ومسكنه وأبنائه وشهادته وجامعته ووظيفته... وغير ذلك، من أجل أن يثبت أنه مستعد لأن يقدم نفسه إرضاء لله ﷻ، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]، وهل هناك شيء فوق هذه الأمور التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآية مما يتشبه به الناس؟

ما من أحد يبتعد عن الجهاد ويتعذر في ترك الجهاد، إلا ويحتج بشيء مما ذكره الله ﷻ هنا؛ إما أن يحتج بخدمته لبيته وأبنائه وأهله، أو يحتج بوظيفته والتي هي: ﴿تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أو يحتج بتعمير البلاد والبيت... ونحو ذلك، أو أن البلاد محتاجة إلينا ولأعمالنا ﴿مَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا﴾ ونحوها من الأمور؛ فالإنسان ما دام هناك شيء من أمور الدنيا يثبته، فهو من أهل: ﴿أَنَّا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] وليعلم أنه ما زال في دائرة المحنة يحتاج إلى إثبات صدقه في الإيمان.

ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكُمَّل الذين كَمَّلَ إيمانهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: الذين وافق قولهم فعلهم، وتطابق فعلهم مع اعتقادهم، ومع إيمانهم بالله وبرسوله ﷺ.

ثم قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]؛ هذا رد على الأعراب الذين قالوا: آمنا؛ أي: قل أتخبرون الله بحقيقة دينكم؟! الله هو الذي يعلم إن كنتم آمنتم كما قلتم، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ أو لم تكونوا كذلك، فمعنى: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ﴾ أي قل: أتخبرون الله ﷻ بحقيقة دينكم الذي هو إيمانكم، والله ﷻ يعلم ما في السماوات وما في الأرض، والله ﷻ لا تخفى عليه خافية؛ فهو الذي يعلم إن كنتم مؤمنين حقاً، والله

ﷺ يعلم إن كان إيمانكم ضعيفاً أو إن كنتم مسلمين، أو إن كان في إيمانكم وهن ورقة؛ فالله ﷻ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ثم قال الله ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: هؤلاء يمنون عليك أيها النبي بأنهم أسلموا وذكروا أنهم قوم من العرب أسلموا وقالوا: إن العرب قاتلتك ولم تقاتلك، كأنهم يمنون على النبي ﷺ، فقال الله ﷻ وضح لهم هذا الفهم الخاطيء قال: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم﴾ كما قال: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [يونس: ١٠٨]، فمن وجد خيراً فليحمد الله ﷻ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

قال ﷻ: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ نعم؛ الله ﷻ هو الذي يمنُّ على عبده أن فتح له باب الهداية، وشرح صدره لنور الإيمان، وأخرجه من الظلمات إلى النور، وأنقذه من الكفر إلى الإيمان، وأخرجه من المعصية إلى الطاعة، وهذا كله بتوفيق الله ﷻ، وتيسيره وإعانتة ﷻ؛ فهو الذي يمنُّ على عباده ليشكروه على هذه النعمة.

ثم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، وهذا من باب الأمر العام، فهناك أخبرهم الله ﷻ: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦] أي: أتخبرونه بما في قلوبكم إن كان إيماناً أو لم يكن كذلك، وهنا في هذه الآية أخبرهم بأن الله ﷻ يعلم كل غيب في السماوات وفي الأرض، وهو البصير بأعمالكم؛ يعلم إن كانت موافقة للحق أو مخالفة، يعلم إن كنتم صادقين فيها أو لم تكونوا كذلك؛ فالله ﷻ هو الذي يعلم السر وأخفى ﷻ.

نسأل الله ﷻ أن ينفعنا بما علمنا وأن يجعلنا من الصادقين وأن يختم لنا ولكم بالشهادة في سبيله إنه سميعٌ قريب، وصل اللهم على خير خلقك محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وجزاكم الله خيراً، وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.



